وتغير لونُ السماء

قصص

وتغير لون السماء
قصص

تأليف :

سندس جمال الحسيني

تصحيح لغوي:

سيد عثمان

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع: 2017/11667

الترقيم الدولي: 978-977-820-037-9

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 -0235688678

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشرِ، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

وتغير لونُ السماء

سندس جمال الحسيني

قصص

أُهــدي كلــماتِ هــذا الكتــابِ إلى مــن علَّمــوني أولَ كلــماتي، وخُطــواتي، وأن الكلمــة روحٌ حــرةٌ لا يكبــح جماحهــا شيء، ومســئولية كــبرى لا يُعيدهــا بعــد التلفــظ بهــا شيء ... إلى أبي وأمــي.

إلى

المهندس/ جمال خلف الحسيني

والمهندسة/ هناء محمود عبد الغني

منسحبون

بمجرد وصولي لم يستقبلني أحدٌ، بالرغم من الخوف المتجسد في ملامح وجهي، ولحظة التصديق التي أبت أن تراودني، كنت أرغبُ في بعض الصحبة ليفسروا لي ما حدث، ما توقعتُ أن نكون جميعًا في هذا المكان قد مررنا بالشيء ذاته مع اختلاف الأنماط والأزمان والأساليب، بعد فترة وجدت مجموعة من المصريين يجلسون على الحشائش متقوقعين بعيدًا عن الآخرين، عرفتُهم من أصوات ضحكاتهم العالية المصحوبة بالسخرية اللاذعة، فتوجهت إليهم متوجسًا ولكن سعيدًا بالعثور عليهم بعد أيام من الحيرة.

أول ما اقتربت من دائرتهم بدأ الترحيب، قالت فتاة ذات شعر طويل:

- رحبوا بزميلٍ جديد سيقص علينا أخبار الخارج.

ردَّ عليها شابٌّ قصير القامة:

- تتحدثين وكأنها أخبار عظيمة!

فتدخلت فتاة بدينة جدًّا وباسمة:

- على الأقل سيقصُّ علينا قصته هو.

حاولتُ أن أبدو جريئًا، فقلت:

- أنا أريد فقط أن أعرف أين نحن؟

راحت جرأتي مع ضحكاتهم العالية المتهكمة، ثم قال رجل خمسيني:

- لا عليك يا بُني، كلنا سألنا السؤال ذاته في أول يوم.

قلت:

- وهل وجدتم إجابة؟

عادوا للضحك بشكلٍ هستيري، حتى إنني التفتت لأرحلَ، ولكن الشابَّ القصير نهض وأمسك بكتفي وهو يقول:

- أرجوك سامحنا، كلنا مررنا بذلك عقب انتحارنا مباشرة ولفترة لا بأس بها.

حاولت التماسك، ثم قلت:

- أنا لم أنتحر!

بدا على وجهه أمارات الشفقة وهو يقول:

- بعد أيام ستعترف أنك انتحرت، لا تخف، لا أحد سيسألك عن السبب إلا لو قلته أنت بكامل إرادتك، لا سلطة هنا بتاتًا.

شعرت بارتياح شديد بعد تلك الكلمات، كنت أخشى أن

أخضع للتحقيق، وكنت مستعدًا لإنكار التهمة التي قد تجعل أهلي يشعرون بالعار، كما كنت أخشى الشماتة ممن كانوا يكنون لي العداء قبل اتخاذي لتلك الخطوة، ورغم ذلك بدوت مترددًا حتى أضافَ:

- تعال، اجلس معنا واسمع حواراتنا، وليس عليك أن تتحدث إلا حين تشعر بالرغبة في ذلك.

جلست على استحياء، ونسوا وجودي تقريبًا، رغم أنهم كانوا يتحدثون عني أحيانًا، قالت البدينة ذات الابتسامة الساحرة:

- يبدو صغيراً، المسكين، سيبكي ندمًا بعد أيام، وسيذهب إلى قاعة الاستقبال ويطالب بالعودة، وبعدها سيبدأ في التأقلم والرضا والبحث عن ذاته مرة أخرى هنا.

أردفتْ ذاتُ الشعر الطويل:

- هذا لو كان قد اتخذ قراره بشكل جنوني مثلك، يبدو لي أكثر حكمةً، وقد اتخذه بعد دراسة وافية، بل ولم يجعله واضحًا للعيان، لقد اختفى تمامًا من هناك.

قال القصير متهكمًا:

- لن يختفي طويلًا، في النهاية ظهرت فيرجينيا وولف رغم الحجر الثقيل الذي ربطته بجسدها، لا أحد يختفي إلى الأبد.

ازدردتُ لعابي في صعوبة، وتلفتُّ حولي على أمل أن أراها حولي في مكانٍ ما، لم أجدها، ثم تنبهت أنني لا أعرف شكلها من الأساس!

ردت الفتاة:

- ربما كان أكثر ذكاءً، لا تدري لعل الشرطة في بلادنا أقل اهتمامًا.

خفتُ فعلًا أن يفتضح أمري عند أهلي وأصدقائي، فربما حذا أخي الأصغر حذوي، وربما نُشر الخبر في الصحف فشمت بي الشامتون، لا أعتقد أنهم سيُخضعونني للطب الشرعي، أهلي أبسط من توقع أنني انتحرت! الخوف كل الخوف من مجموعة أصدقائي ورفاقي، فالشك في دمائهم يسري.

قال الشابُّ القصير:

- أتذكر جيدًا تلك الخطوة حين اتخذتها، كان الهواء في الشرفة باردًا جدًّا، شعرت أنه يناديني لأحلق في السماء، خلعت السترة الثقيلة وقتلتها قبلي، وحين طارت مع الرياح قررت أن أطير مثلها، لا لم أقرر شيئًا، لقد حملتني قدماي بسرعةٍ هائلةٍ للوقوف على حافةِ الشرفةِ والقفز، لا أذكر شيئًا بعدها سوى وجوهكم.

قال الرجل الخمسيني:

- وكل مرة لا تذكر لنا السبب.

- أقسم أنه لا يوجد سبب سوى عشق الهواء!

قالت ذاتُ الشعر الطويل:

- كاذب!

- ولماذا أكذب عليكم!

- لابـد مـن لحظـة ضيـق هائلـة! لابـد مـن لحظـة انهيـار، حتـى لـو سـبقت عشـقك للهـواء كـما تدعـي!

- كنــت أعشــق أن أختــار لنفــسي، أن أكــون صاحــب القــرار، وأعجبتنــي فكــرة أن أكــون أنــا مــن يُحــدد تلــك الســاعة.

- كلنــا هــذا الشــخص، حتــى كليوبــترا قالــت ذلــك، ومارلــين مونـرو، ولكنهـم مـرُّوا بلحظـات دمـار شـامل أدت إلى هـذا القـرار.

كنـت قـد بـدأت في تخيـل الموقـف، هـذا المـكان هـو للمنتحريـن فقـط! وأنـا الـذي ظننـتُ أننـي سـأقابل أصدقـائي مـن الشـهداء والمقتولـين، وجـدي وعمـي وأمـي! هـا قـد تـم عقـابي بـألا أقابـل إلا مـن يتفلسـفون ويُكـثرون مـن اللغـط.

قال الشاب القصير:

- أشــعر أننــي قــد رأيــت وجهــه مــن قبــل، ربمــا كان معــي بالجامعــة ذاتهــا؟

بــدأت في التوتــر، كنــت أتمنــى أن يكونــوا قــد انتحــروا قبــل أن يصبـح لوجهـي تلـك الشـهرة، قـال الرجـل الخمسـيني:

- ربمـا كان يعمـل في مجـال الفـن، يبـدو وجهـه مألوفًـا لي أيضًـا، قبـل لحظتـي كنـت أتابـع الفـن عـن كثـب.

تدللتْ ذاتُ الشعر الطويل وهي تقول له:

- ولماذا تلونت حياتك باللون الأسود حتى قررت هذا القرار؟

- أنتِ تعرفين!

- ولكـن في كل مـرة تذكـر تفاصيـل جديـدةً لم أكـن قـد سـمعتها مـن قبـل.

- تعرفـين أننـي فقـدتُ معنـى الوجـود، بعدمـا ماتـت ابنتـي، كنـت أظـن أننـي سـأراها حـين أفعـل ذلـك، منعـوني عـدة مـرات، وأنقـذوني مرتـين، وفي الأخـير انتـصرت إرادتي.

ضحكـتُ لأول مـرة، هـو أيضًـا ظـنَّ أنـه سـيقابل الراحلـين، والآن كيـف السـبيل إلى العـودة؟

قالت الفتاة البدينة عذبة الكلمات:

- تقليـدي جـدًّا أنـت، حزنـت بشـدة، اكتأبـت، تناولـت أدويـة الاكتئـاب بـلا جـدوى، انتحـرت في لحظـة جنـون، أندمـت؟

- بشـدة! ولكـن أحيانًـا تتملكنـي روح مـن هـدوء وسـكينة، عـلى الأقـل عرفـت نهايتـي ولم أعـد أكـترث بالمسـتقبل، ولكـن هـدفي لم أصـل إليـه وهـذا مـا يشـعرني بالنـدم، ربمـا لـو انتظـرت سـاعتي كالآخريـن المغلوبـين المنقاديـن إلى مصائرهـم، لذهبـت إلى المـكان الآخـر حيـث ابنتـي.

ربتـت الفتـاة البدينـة ذات العيـون الغارقـة في السـحر عـلى كتفه، ونظـرت إليَّ مبـاشرةً بحنـو بالـغ، لم أفهـم لمـاذا ارتحـت لنظراتهـا وكنـت أود أن أعـرف سـبب انتحارهـا، لم تنطـق، بـل بـدأ الشـاب القصـير في السـخرية والمـزاح حتـى قـال:

- نحـن مجموعـة خاسريـن! لا يوجـد أي فـرد مـن مجموعتنـا

غـير خـاسر.

قالت ذات الشعر الطويل:

- مخطـئ أنـت يـا عزيـزي، هنـاك الكثـيرون ممـن انتحـروا في عـزِّ مجدهـم ونجاحهـم، ومنهـم مـن سـأم الحيـاة رغـم كونهـا كانـت سـخية معـه بـلا حسـاب.

ضحك وقال:

- أي حيـاة وأي سـخاء؟ تقصديـن النجـاح الأدبي والشـهرة والمـال؟ بالطبـع كان لديهـم بـؤس مـا جعلهـم خاسريـن في مواضـع أخـرى، جعـل منهـم مدمنـين لأي شيء يـسري في دمائهـم فيغـيِّر مـن تكويـن عقولهـم، بالتأكيـد كرهـوا حياتهـم لأسـباب حقيقيـة.

تـسرب الملـل إلى نفـسي سريعًـا، لم أتخيـل كيـف سـأقضي الأيـام في هـذا المـكان، فجـأة قلـت:

- ولماذا أقدمت فتاة جميلة العينين مثلكِ على الانتحار؟

نظـر لي الجميـع مندهشـين، لم تـدرك هـي أننـي أتحـدث عنهـا، إلا حـين لاحظـت أننـي أنظـر إليهـا، ضحكـت ضحكـة هـي الأكـثر صفـاءً بـين الضحـكات التـي يـتردد صداهـا في العـالم، ثـم قالـت:

- لأنه لا أحد في حياتي السابقة كان يراني مثلما رأيتني أنت.

شـعرت بالرهبـة بعـد كلماتهـا بـلا سـبب واضـح، ربمـا لأننـي لم أعتـد كلمـة حيـاتي السـابقة بعـد، لازلـت أشـعر أننـي سـأعود وسـأخبرهم بدوافعـي، أو سـيكون هنـاك فرصـة أخـرى في الحيـاة

التـي اعتدتهـا، قلـت بصعوبـة:

- لا داعـي للسـخرية والضحـك، ولكـن هـل هنـاك مـن أي سـبيل للعودة؟

ضحكـوا رغـم طلبـي، توتـرت وقـررت أن أتركهـم، ولكـن الشـاب القصـير اسـتوقفني وقـال:

- حسـنًا أنـا أعرفـك! لكـن سـامحني لا أذكـر متـى رأيـت وجهـك في الحيـاة الأخـرى، هـلا عرفتنـا بنفسـك؟

- لا أرغـب في أن يعرفنـي أحـد، لا أحـب أن يُذكـر اسـمي في أي مـلأ.

- ولكننـي أشـعر بفضـولٍ غامـر، لا أسـتطيع أن أوقـف سـيل الأسـئلة! أشـعر أنـك هـو، نعـم أنـت هـو مـن أظـن، ومـن أرفـض أن أظـن أنـه هـو.

اندهـش الجميـع مـن تلـك اللهجـة، عرفـت أنـه يعرفنـي، ويرفض أن يصـدق أن النهايـة كانـت أننـي انتحـرت، قلـت بسرعـة:

- لسـت هـو، أنـا أشـبهه فقـط، الآخـر مـات مقتـولًا عـدة مـرات، في كل مـرة كانـوا ينقذونـه قبـل الرمـق الأخـير، ولكننـي لسـت هـو.

- هل تقصد لم تعد هو؟

- أقصـد أنـه قـد مـات قبـل انتحـاري بزمـن طويـل، زمـن يطـول في نظـري وفي عمـر الزمـن هـو زمـن لا يسـاوي غفـوة ظهـيرة.

قام الرجل الخمسيني وعلى وجهه علامات البؤس يقول:

- لـو كنـت أنـت الـذي نظـن أنـه هـو، وكانـت نهايتـك هنـاك أنك قـد انتحـرت! إذن لا فائـدة في حياتنـا السـابقة ولنشـكر الظـروف التـي قادتنـا إلى أن نتخلـص مـن حيواتنـا، لا أمـل ولا هـدف بعـد انتحـارك.

آلمتنـي كلماتـه، أعـرف أنـه محـق، وأن اكتشـافه هـذا هـو مـا دفعنـي للخـلاص، لم أنسـحب لأننـي جبـان، بـل لأننـي أقـوى مـن تصـور أننـي سـأتمكن مـن مواصلـة الكفـاح، الخصـم الرعديـد يسـتمر في حـرب يعـرف أنـه خـاسر فيهـا، فيـترك نفسـه ليصبـح مهزومًـا بيـد عـدوه، بينـما المقاتـل الشـجاع ينسـحب، حاولـت أن أعـبر عـن تلـك الحالـة ففشـلت، صمـتُّ تمامًـا منكـسَّ الـرأس، لم أنـدم، ولكننـي حرصـت ألا يعـرف باقـي المقاتلـين أننـي قـد انسـحبت في هـذا الهـدوء، كنـت لا أزال أتسـلح بأمـل أن ينجـح أحدهـم في الفـوز بتلـك المعركـة، ربمـا ظهـر مـن هـو أقـوى مني في العقـود القادمـة.

قالت ذات العيون المذهلة:

- لا عليـك، لا تحمـل نفسـك مـا لا طاقـة لـك بـه، كلنـا انسـحبنا لأننـا رفضنـا الاسـتمرار في الألم.

كيف عرفت ما أفكر به! فأضافت:

- لا تندهـش مـن كـوني أعـرف مـا يـدور بخلـدك، كلنـا مررنـا بـه ونشـبه بعضنـا ولكننـا لا نعـترف.

ابتسمتُ لها ممتنًّا، ثم قلت:

- حسنًا أنا هو! هو من تظنون، ومن كنتم تعتقدون أنه رمز الثورة والأمل، انتحرت بكامل إرادتي، لست نادمًا، ولكنني أخشى أن يستغل عدوي رحيلي في تثبيط عزيمة الآخرين، انسحبت لأنني أضعف منه قوةً، انسحبت لكي تكون يدي هي الفاعلة، لا يده ولا يد جلاديه.

بينما يسمعونني، وكلماتي تتواصل في بث روح الرضا بداخلي، ظهرت في الأفق مجموعة من الشباب والبنات يحملون الأعلام ويتقدمون نحونا في خطوات ثابتة، حين اقتربوا عرفت الوجوه، هؤلاء رفاقي لا ينقصهم أي واحد!

صرخت:

- لماذا أتيتم!

أجاب رفيق الكفاح:

- تركنا الساحة له فليحارب وحده، فلينتصر وليشمت في غبار الأرض ورياح السماء وصخر الجبال.

ازدحم المكان، ما بين مندهشين وفرحين، شعرت بغبطة غريبة، صار لنا عالم خاص بنا، تركنا ساحتنا وساحة أجدادنا، فليفرح بالنصر الوهمي، وليبحث عمن يستعبده، فلا يجده.

قالت لي زهرا

بخطـوات بطيئـة في مسـيرة معظمهـا أفغـانٌ وباكسـتانيون، بالإنجليزيـة قالـت لي زهـرا:

- المصريون هم أجمل شعوب الأرض.

- نعم؟

- بالتأكيد؛ لأن حضرة يوسف عليه السلام كان من هناك.

- حسـنًا هـو لم يكـن في الأصـل مـن مـصر، كان مـن الشـام، وبغض النظـر، فنحـن نشـبهكم كثيراً، وعـلى العموم شـكرًا.

- ليـس لدينـا هـذه العيـون الفرعونيـة المتميـزة، إنهـا الأجمـل عـلى الإطـلاق!

ضحكـتُ بـلا تعليـق؛ كنـت سـعيدة لأننـي وجـدت أخـيرًا لسـانًا ناطقًـا بالإنجليزيـة السـليمة وسـط كل هـذا الأوردو والفـارسي، بينما نحـن في ألمانيـا! ولأننـي وجـدت مـن لا يسـألني عـن الحـرب في مـصر، فمنـذ قليـل كنـت قـد شرحـت بنفـاذ صبر لأحدهـم وأنـا غير واثقـة مـن كونـه قـد فهـم، أننـا لا نعيـش أي حـرب مـن أي نـوع! هنـاك بعـض القلاقـل والنزاعـات العاديـة، ولم نعـش أي حـرب منـذ سـنوات طـوال هـي بعمـر أبي! لكـن كان هـذا الخلـط بـين كل دول

الشرق الأوسط في عقول الناس هنا مزعجًا جدًّا، وكثيرًا جدًّا. كما كنت سعيدة لأنها لن تبدأ بسؤالي عن سبب وجودي، أو ملابسي، أو لوني، أو كيف سمح لي رجال أسرتي بالتواجد خارج المنزل، كما سألتني تلك الفتاة الأوكرانية في الجامعة بكل اهتمام. كنت أتعرض كل يوم إلى سيل من الأسئلة الغريبة التي لو فكر طارحوها في إجابتها للحظات لما طرحوها، وكانت هي شرقية إلى حد ما، فلن تسأل.

رحت أستمع إلى زهرا وهي تحكي وتحكي، حكايات لا تشبه غرض المسيرة على الإطلاق، قالت:

- لقد وصلت إلى ألمانيا منذ ثلاثة أشهر. ولازلت في بدايات تعلم الألمانية، لا أعرف منها بعد إلا بضع كلمات.

- لأول مرة؟

- نعم، لأول مرة أخرج من إسلام آباد. تعرفين إسلام آباد هي العاصمة، أنا أحبها كثيرًا.

- هذا طبيعي أن تحبينها كثيرًا، هي بلدك.

- لا هي حقًّا جميلة وتستحق هذا الحب، أشتاق إلى الطقس وإلى الناس، وحتى الزحام ورائحة الأسواق المشبعة بالتوابل.

- لكن قلتِ لي إن أمَّكِ ألمانية، كيف لم تأتِ معها من قبل؟

كانت أخبرتني في بداية التعارف أنها تحمل الجنسية الألمانية منذ مولدها؛ لأن والدتها ألمانية، كنت قد لاحظت اختلافًا في ملامحها وألوانها عن باقي الباكستانيات، ولكن هي تطوعت

بإخبـاري بالسـبب الـذي أدخـل اللـون الأزرق إلى عيونهـا دون أن أسـأل. قلـت مازحـةً:

- هـذه غلطـة أمـك أنهـا لم تعلمْـكِ لغتَهـا، في العـادة تحـرص الألمانيـات عـلى التحـدث بالألمانيـة مـع أطفالهـن، بـل وحتـى أزواجهـن! هـل كانـت تتحـدث معـكِ بـالأوردو؟

ابتسمت وهي تقول:

- لم أر أمي منذ كنت في الثالثة من عمري.

كان لزهـرا ابتسـامةٌ خلابـة تجعـل عينيهـا تضيـق قليـلًا، ووجنتيهـا تضيـآن، كانـت تبتسـم بـلا انقطـاع كاشـفة عـن جـزء صغـير مـن أسـنانها. ابتسـمتُ أنـا أيضًـا ثـم أردفـتُ محاولـةً عـدم إضفـاء لمسـة حـزن عـلى صـوتي:

- ظلمناها، لم تكن مخطئة إذن.

ضحكت بصفاء شديد ثم قالت:

- أتيـت إلى ألمانيـا بنـاءً عـلى رغبـة جميـع عائلتـي في باكسـتان، ولكننـي في الحقيقـة أتيـت لأبحـث عنهـا، أريـد حقًّـا أن أراهـا، أتمنـى أن أجدهـا تفهـم بعـض الأوردو أو حتـى الإنجليزيـة.

- لا تقلقي ستجدينها وستجدين وسيلة للتواصل.

- لقـد انفصلـتْ عـن أبي بعـد أن كانـت تعيـش معنـا في إسـلام آبـاد، وكانـت تسـأل عنـا بـين الحـين والآخـر، عـن طريـق أبي، حتـى تـوفي منـذ عـدة أعـوام. ومـن وقتهـا لم أسـمع عنهـا شـيئًا.

أردت أن أقـول كـم هـذا حزيـن، ولكننـي اكتفيـت بمجاراتهـا في الابتسـام، وفي الاسـتماع. أضافـت:

- كلهم خططوا لي أن أهاجر إلى ألمانيا؛ لأكون مع شقيقتي.

- هذا جيد.

- لا ليس جيدًا، إنهم يقررون كل شيء.

لم أسـأل مـن هـم؟ كانـت شـقيقتها تسـير بجوارنـا ومعهـا ابنهـا الرضيـع، وابنـا آخـر يسـير بجوارهـا، لا تفهـم حرفًـا مـن الإنجليزيـة، وتتحـدث ألمانيـة ضعيفـة، علمـتُ أنهـا قـد تزوجـت في باكسـتان مـن ابـن عمهـا كالمعتـاد، ثـم قدمـت إلى ألمانيـا معـه ليبحـث عـن عمـل، بحكـم كونهـا ألمانيـة الجنسـية. كانـت زهـرا تلتفـت حولهـا كثـيرًا لتتأكـد مـن أن شـقيقتها لا تفهـم حديثنـا. قالـت:

- هـل تعلمـين، في درس اللغـة الألمانيـة معـي العديـد مـن العرب، سـوري وعراقيـون وفلسـطينيون. أرغـب حقًّـا في أن أتعلـم لغتهـم. تبـدو لي غايـة في الجـمال.

- سأعلمكِ بعض الكلمات باللهجة الشامية وسينبهرون بكِ.

ضحكت وقالت:

- أحيانًـا أسـتطيع فهـم بعـض الكلـمات، هنـاك الكثـير مـن الكلـمات المشـتركة مـع الأوردو.

- وماذا عن الشاب السوري؟ هل هو ظريف؟

- كيف عرفتِ أن هناك شابًّا سوريًّا في الدرس!

ابتسمت وأنا أقول:

- أنتِ مكشوفة جدًّا، قلتِ: سوري وعراقيون وفلسطينيون.

توردت وجنتاها وهي تقول:

- لا أنتِ ذكية جدًّا.

انفجرت في الضحك وسألت:

- هـل يـرضى أهلُـكِ أن تذهبـي إليهـم وتخبريهـم أن هنـاك شـابًّا سـوريًّا عـلى سـبيل المثـال، فقـط كمثـال، يرغـب في الـزواج بـكِ؟

- مستحيل.

- لماذا؟ حتى لو كان يؤمن بالدين ذاته؟

- الأمـر أكـثر تعقيـدًا مـما تتصـوري، هنـاك شـجرة العائلـة، لابـد أن يكـون مـن العائلـة ذاتهـا، أو مـن درجتهـا، لابـد أن يكـون ماديًّـا متماثـلًا معنـا، لابـد أن يكـون باكسـتانيًّا بالطبـع. مجنونـة أنـتِ.

كانت تقول ذلك بتهكم شديد.

قال المتظاهرون:

- حياة كريمة للاجئين الأفغان.

هتفوا جميعًا:

- كل البشر سواسية.

كان المنظمـون ألمـان، والمتفاعلـون مـن المقهوريـن، أتيـتُ فقـط

كحب استطلاع. رأيت الشرطة تحمي المظاهرة، والمتظاهرون يوزعون منشورات تشرح القضية على المارة، يتفاعل بعض المارة وينضمون إلى المسيرة، والبعض الآخر لا يهتم ويرحل، الشارع هادئ تمامًا، بالرغم من الهتافات التي تخترق الصمت اليومي، كون الأمر حضاري ومختلف بهذا القدر كان يتلاعب بي ويدمج المشهد مع مشاهد أخرى رأيتها في الماضي في القاهرة فيصيبني بالإرهاق الفكري. قالت لي زهرا:

- هل تصدقين أن شقيقتي كانت تحاول أن تقنعني بالزواج من شقيق زوجها، المشكلة أنه لم يكمل حتى تعليمه الثانوي، وأنا معي ماجستير إدارة أعمال.

- لا توافقي بكل بساطة. أم إنهم سيجبرونكِ؟

- يجبرونني، ولكنهم سيجعلون حياتي كالجحيم. في محاولات إقناعي، ثم سيقولون عني مغرورة ومتمردة، ثم سيعاملونني بطريقة بشعة.

- لا توافقي وانتهينا، بعد فترة سيمر الأمر.

- المشكلة أنه أيضًا لا يحبني مثلًا بشكل خاص، كانت له صديقة، وهو مدمن للمخدرات والخمور بينما أنا لا أشرب على الإطلاق، كما أنه تورط أكثر من مرة في أعمال عنف وأمور مخالفة للقانون.

نظرت إليها لأرى تعبيراتها، كانت تتحدث بينما نسير؛ لذا كنت قبل ذلك أتابع المسيرة، وجدتها لازالت تبتسم. قلت:

- هذا غير مناسب لكِ بالمرة.

- أعلم ولن أقبل ولو على جثتي، لا يضايقني الأمر، فهم فقط يريدون له الهروب من باكستان، وأن يتزوج من تحمل جواز السفر الألماني، فتستقيم حياته كما يتصورون. هذا طبيعي، يريدون له الأفضل. لكن ما يضايقني هو موقف شقيقتي، تعلم جيدًا أنه غير مناسب لي بالمرة، وأنني أرفضه، ورغم ذلك تحاول إقناعي، وتغضب مني، أحيانًا أشعر أنها لا تحبني، لا تحب إلا زوجها الغليظ الذي يقول أشياءً قبيحة بحق أمي فقط لأنها أجنبية لا تدين بدينه.

صمتت قليلًا ثم قلت:

- أختكِ لا تكرهكِ، بالعكس هي تحبكِ بشكلٍ كبير. فقط هي تخشى من زوجها، وتريد لحياتها أن تستمر مستقرة، فهو يضغط عليها من أجل شقيقه المنحرف. ويسمم حياتها وهو حتمًا يجيد ذلك.

- كيف عرفتي! أنتِ لستِ حتى من بلادنا لتعرفي طبع الرجال المتزمتين لدينا!

ضحكت وقلت:

- لدينا منهم الكثير، نحن متشابهون جدًّا.

- لهذه الدرجة؟ إنه يسيطر عليها بالكامل، حتى صرت لا أعرفها.

- إنها فقط تتفادى المشاكل، وتخشى أن يجعل الحياة لا

تحتمـل، فهـو بـارع جـدًّا في ذلـك.

- لكننـي لـن أسـمح لـه أن يتدخـل في حيـاتي ولا أن يقـرر بالنيابـة عنـي! هـل تصدقـين أنـه لا يريدنـا أن نبحـث عـن أمنـا؟ بـل وجعـل شـقيقتي تقـول لي أيضًـا إنهـا لا تهتـم بالوصـول إليهـا.

في تلـك اللحظـة كان صوتهـا غاضبًـا، وبالرغـم مـن ذلـك كانـت لا تـزال تبتسـم ابتسـامة بهـا مـرارة، ثـم قالـت:

- هـل لازلـتِ تعتقديـن أنهـا تحبنـي؟ إنهـا بهـذا لا تحـب إلا نفسـها.

- صدقينـي هـي تحبـكِ ولكنهـا تفكـر في حياتهـا وأطفالهـا وتختـار الطريـق الأسـلم، أعتقـد أنـكِ لـو عشـتِ هنـا أكـثر ستسـتطيعين أن تجبريهـم عـلى الـزواج مـن شـخص مـن اختيـارك.

- أنـا لا أريـد أن أجعلهـم يكرهوننـي، أنـا أحـب عائلتـي وأحـب أن أكـون تقليديـة وأن أتبـع العـادات، لكـن هـذا يفـوق احتـمالي، جعلـوني أتـرك بلـدي التـي أحـب، وأصدقـائي، وحيـاتي، فقـط لأن ألمانيـا سـتكون فرصـة جيـدة لشـاب باكسـتاني مـن عائلتـي يتـزوج بي ويـأتي بسـبب جـوازي إلى هنـا، ومـاذا عنـي أنـا؟

هنـا بـدأت العـبرات تترقـرق في عينيهـا، ورغـم ذلـك ظلـت محتفظـة بالابتسـامة. قلـت:

- أنـا أفهمـكِ تمامًـا، أنـت تكرهـين أن يتزوجـكِ شـاب فقـط لأنـكِ تحملـين الجنسـية الألمانيـة، ليـس لأنـكِ زهـرا، ليـس لأنـه اختـاركِ أنـتِ ويحبـكِ لذاتـك، ولكـن صدقينـي ربمـا كانـت الطريقـة

التقليدية ليست بهذا السوء دومًا، ربما يأتيكِ شاب طموح ثم يُعجب بكِ لشخصك، نعم هي نسبة ضئيلة ولكن موجودة ولا بأس بها، دعي الأمر للوقت، واهتمي باللغة وأن تجدي عملًا وأن تنخرطي في المجتمع، وابحثي عن أمكِ، ربما تجدين لديها جوابًا لأسئلة ظلت معلقة منذ طفولتك، ربما كانت مظلومة وتحاول البحث عنكم، ربما منعها أحد الكارهين للأجانب أو لأن دينها مختلف.

بكت زهرا وهي تبتسم، حاولتْ إخفاء عبراتها سريعًا ولكنها كانت تبكي بلا انقطاع، ثم قالت:

- كيف فهمتي كل شيء عني وأنتِ لا تعرفيني إلا منذ ساعتين؟ بينما لا يفهمني أهلي؟ كيف فسرتي مشاعري بكل تلك السلاسة؟ حقًّا أهل مصر مباركون.

ضحكت وأنا أقول:

- لا مباركون ولا شيء، عائلتك تفهمك ولكنهم يرون الأفضل لكِ من وجهة نظر مختلفة لا أكثر.

كادت المسيرة أن تنتهي، بشكل عادي بلا اشتباكات ولا مصابين ولا اعتقالات، أمر ممل للغاية مقارنة بالأحداث الدامية في القاهرة خلال السنوات الأخيرة، وكنا نعلم أنها مسيرة من الرابعة إلى السادسة ستمر من هذا المكان وتنتهي في هذا المكان. قالت لي زهرا:

- هل سأراكِ مرة أخرى؟ لابد أن نصير أصدقاء.

- نعم، سأعلمكِ بعض العربية، وباللهجة السورية أيضًا.

عـادت للابتسـام بصفـاءٍ شـديد، وكأنهـا وُلـدت في الجنـة ولم تعـانِ في حياتهـا مطلقًـا، كانـت قويـة ولا تعلـم أنهـا قويـة. كانـت مميـزة جـدًّا وتظـن أنهـا أقـل مـن فتـاة عاديـة، ولكننـي لم أقابلهـا مـرة أخـرى، تبادلنـا الأرقـام وتراسـلنا، علمـت أنهـا كانـت تبحـث سرًّا عـن والدتهـا، وأنهـا وجدتهـا وقـررت أن تنتقـل إلى المدينـة التـي تعيـش فيهـا بعـد أن فرحـت أمهـا بلقائهـا بشـكلٍ كبـير، وتركـت شـقيقتها، ثـم عـادت إليهـا واصطلحَـا وظلـت عـلى علاقـة بأمهـا، قالـت لي إنهـا تكـره التمـرد، ولا تريـد أن تصـير ألمانيـة العـادات، ولكنهـا صـارت مسـتقلة بعـد حركـة التمـرد الصغـيرة تلـك، لم يعـد أحـد يسـتطيع فـرض إرادتـه عليهـا، كنـت أنتظـر منهـا المزيـد مـن التمـرد والخـروج عـن الـسرب، ولكنهـا كانـت راضيـة بمـا حققتـه.

قالـت لي زهـرا إن لغتهـا الألمانيـة تحسـنت كثـيرًا، ولكنهـا ترغـب في معرفـة بعـض الجمـل باللهجـة السـورية، ابتسـمتُ وأنـا أطالـع تلـك الكلـمات مكتوبـة في حوارنـا عـلى الهاتـف، منتظـرة مسـتقبلًا بـه المزيـد مـن الخـروج التدريجـي عـن الخـط المرسـوم للفتـاة الباكسـتانية الملتزمـة.

ما هو إلا صعلوك

انعزل عبد المجيد تمامًا عن جميع أهل الحي، كان غير راغبٍ في أي مزيد من التواصل زاهدًا في أي علاقات، السابقة منها أو المستقبلية المحتملة، وقد قرر أخيرًا أن يعيش وحده، وإلى الأبد، بلا انتهاء، شعر أن دينونته تقترب، وحياته بهذا الشكل المهين لم تعد ترضيه ليموت عليها، كان يرغب في التغيير وفي هذا التوحد مع ذاته، أن ينسى صدقًا كل شيء ألمَّ به طوال عمره، من ذلٍّ وإهانة، قرر أن يمحو اسم عبد المجيد الصعلوك من ذاكرته، وأن يبدأ بداية جديدة، تكون فيها نهايته الكريمة.

لينفذ خطته اختار وقتًا متأخرًا من الليل للهرب، كان قد أعد العدة منذ شهور، كهف في الجبل لم تطأه أقدام البشر، منذ زمن حفظ الطرق الوعرة في الجبل عن ظهر قلب، وطالما أحب التنزه فيها وحده بعيدًا عن أنظار أهل الحي، هذا الكهف يصلح لحياته الجديدة، فيه سيعيش كما يرغب ولن يعترضه شيء.

الوحدة التي عاشها منذ طفولته لم تجعله يشعر بفرقٍ في هذا المنفى الاختياري؛ فقد كان يتيمًا منذ المولد، أو بالأحرى لقيطًا لا يُعرف له والدان، اعتنت به أسرة فقيرة ليزدادوا به

فقـرًا، كانـوا يعاملونـه برفـق، بالرغـم مـن المألـوف والمعتـاد عـن معاملـة اللقطـاء بالشـدة والغلظـة، ولكنهـم حقًّـا اعتـبروه واحـدًا منهـم، ولكـن لم يسـتطيعوا درء الغمـزات واللمـزات عنـه، فنشـأ وهـو يـدرك أنـه مختلـف اختلافًـا لا تغـيره الأيـام، كالعاهـة لا منـاص منهـا.

أحبهـم كثـيرًا، كانـوا لـه عائلـة ودفئًـا وطعامًـا يوميًّـا، ولكـن حـين وصـل لأعتـاب الشـباب كان قـد ضـاق بضعفهـم ذرعًـا، فقـرر في يـومٍ أن يتركهـم ويجـرب حظـه في حـي لا يعرفـه فيـه أحـد، وحـين رحـل عنهـم كان لا يُـدرك أنـه سـيبدأ حيـاة الصعلكـة الحقيقيـة وأنـه لـن يعيـش إلا بمزيـدٍ مـن وصـمات العـار والعاهـات، التـي سـتكون تلـك المـرة تابعـة لأفعـالٍ لم يولـد بهـا.

حيـاة طويلـة عاشـها حتـى بلـغ السـتين، لم يكـن أبـدًا ذا قيمـة ولا لوجـوده أي تأثـير، مـرات عديـدة متفرقـة حُكـم عليـه بالسـجن للسـطو الحقـير عـلى محـلات البقالـة أو بائعـي اللـبن، كان يخـرج مـن الحبـس أكـثر احتقـارًا مـن الآخريـن ودونيـة، ولا يذكـر عمـلًا شريفًـا امتهنـه إلا مهنـة المهـرج في الأعيـاد، حـين كان يرتـدي قناعًـا كبـيرًا يُخفـي بـه وجهـه ويبـدأ في إلقـاء النـكات لإضحـاك الأطفـال، كان يحـب تلـك المهنـة الموسـمية، ويعـود بهـا طفـلًا، وينـسى بهـا تاريخـه الـذي بـدأ قبـل ولادتـه.

لم يتـزوج قـط، فلـم يكـن لـه ولـد قـط، كان يكـره النسـاء ويـرى فيهـم تلـك المـرأة التـي تركتـه رضيعًـا ذليـلًا يحمـل عنهـا عارهـا الـذي لم تسـتطع أن تواجـه المجتمـع بـه، كان يحمـل عـارًا لا يخصـه، ولم يفهـم أبـدًا مـن وضعـه عـلى كتفـه وبـأي ذنـب، وكل مـا رسـخ

في ذهنه هو كرهٌ للأسرة وللأمهات وللآباء وللإنجاب وللعالم.

أخيرًا وحده، بلا ألم، ولا نعوت كريهة، سيعيش هانئًا هادئًا، وبالفعل مكث في الكهف فترة ارتاحت فيها روحه الهائمة، واسترد بعضًا من حبه للحياة، الذي لم يرافقه إلا طفلًا لم يفهم بعد، بل وصنع بعض الألعاب ليُمضي وقته بلا ملل، كان يحب الألعاب ويشعر نحوها بالحنين للفترة القصيرة الصافية من حياته.

صنع بعض التماثيل الصغيرة كالدمى، وأطلق عليها الأسماء، كانت بدائية في البداية حتى قرر أن يُركز جهوده على صنع نموذج متميز، يحمل صفات جيدة فقط، يبدو جميلًا، أنيقًا، ويصلح كدمية فاتنة، وأثناء صنعه الذي استغرق زمنًا لا يعرف مداه؛ إذ لم يعد يحسب الزمن، قرر أن يمنحه وجهًا يشبه وجهه في مراهقته وبدايات شبابه، لم يكن عبد المجيد قبيحًا أبدًا، بل كان لقسمات وجهه بعض الجمال، ولطوله هيبة، ولكنه لم يكن أيضًا ذا دهاء أو ذكاء، ولا شجاعة؛ لذا كره كل ما فيه ولم يرَ هذا الجمال مطلقًا، ولكنه الآن قرر منح وجهه لتلك الدمية على أن يجعلها أكمل وأجمل، سيمنحها بعض الشجاعة تبدو واضحةً في الملامح، والقوة والجرأة، وكأنها مشروع حياته.

صنع دمية الرجل القوي الوسيم، وأحبه جدًّا حتى صار يقص عليه حكاياته أثناء صنعه، ذكريات من طفولته، ومن عمله كمهرج، وبعض أيام السجن، وجد نفسه بلا وعي يتطرق إلى النعوت، والإهانة، كان يبكي وهو يذكر بعض اللحظات، ولكن يشعر بأنه يتحسن ويتقبل ذاته أكثر، حتى اكتملت الدمية

وأصبحـت في غايـة الجـمال والإبـداع.

في تلـك الليلـة نظـر عبـد المجيـد إلى دميتـه مشـدوهًا، لا يصـدق أن أناملـه قـادرة عـلى صنـع شيء بهـذا الحسـن! لم ينـم مـن فـرط الانبهـار، وعـاد يتحـدث مـع الرجـل الـذي بـدا لـه في العشريـن مـن عمـره، عبـد المجيـد النسـخة المعدلـة، رقـص فرحًـا وجـذلًا بجوارهـا وراح يتحـدث مـع الشـاب الجديـد في هـذا العـالم، ويقـول لـه أنـت الأفضـل وأنـت الأجمـل وسأسـميك أمجـد؛ لأنـك سـتكون حقًّـا صانـع أمجـاد وليـس مجـرد عبـد مثـلي.

مـرت الأيـام ومـل عبـد المجيـد مـن عـدم وجـود أي ردة فعـل لأمجـد، وظـل يحلـم طويـلًا أن يتفاعـل معـه أمجـد، وأن يسـمع لـه صوتًـا أو يـرى لـه انفعـالًا، كل يـوم صـار يطلـب منـه ذلـك ويقـول لـه أنـت مجـدي ومعجـزتي حتـى بـدأت حقًّـا المعجـزة! فقـد تحركـت عيـون الدميـة معـه فتوقـف مبهوتًـا!

أيتخيـل؟ أم أن الدميـة الصـماء تتحـرك حدقـة عينيهـا مـع حركتـه؟ بعـد عـدة تجـارب للحركـة أيقـن مـن أنهـا تتجـاوب! انتظـر عبـد المجيـد تلـك اللحظـة طويـلًا وتخيلهـا ورسـمها في ذهنـه كـما يجـب أن تكـون، لابـد أن يـراه أمجـد شـخصًا عظيـمًا وقـورًا مبجـلًا ومهيبًـا! لابـد أن يعظمـه ويخشـاه ويحبـه ويطيعـه؛ لـذا بمجـرد حركـة أمجـد اتخـذ عبـد المجيـد وضـع الجلـوس المعتـدل ورسـم ملامـح الفيلسـوف العبقـري.

أول كلمات أمجد كانت:

- من أنا؟!

وبصوت رخيم قال عبد المجيد:

- أنـت أمجـد مـن المجـد، صنعتـك مـن مجـدي ومـن روحـي، أنـت امتـداد لعظمتـي وهيبتـي.

- ومن أنت؟

- أنـا أقـدم منـك بكثـير وأعـرف كل شيء، منـي سـتتعلم وعـلى نهجـي ستسـير.

بـدا أمجـد حائـرًا خائفًـا في البدايـة حتـى تراخـى صـوت عبـد المجيـد وهـو يقـول في وقـار وحنـان في آن واحـد:

- وأنـا أحفـظ حبـك في قلبـي طالمـا أحببتنـي وأطعتنـي، وإن غضبـت عليـك سـأعيدك إلى العـدم حيـث كنـت، اتفقنـا؟

- لن أجعلك تغضب مني.

- هكذا أريدك وهكذا ستكون.

فـرح عبـد المجيـد للغايـة بـرد فعـل أمجـد المطيـع الخانع، وشـعر كأن دمـاء حيويـة جديـدة سرت في عروقـه، وقـرر ألا يخـبر أمجـد عـن أي شيء مـن المـاضي، ولا حتـى عـن وجـود غـيره مـن البـشر، كان يرغـب في رؤيـة الانبهـار في عيونـه بحجمـه الأضخـم ومعرفتـه الأوسـع، وقـرر ألا يتركـه للملـل حتـى لا يطالبـه بصنـع دميـة أخـرى تشـاركه فيـه، وحتـى لا يقـع في هـذا الفـخ، أخـبره أن صنعـه كان معجـزة ولـن تتكـرر.

كان أمجد يفيق كل صباح ويقول لعبد المجيد:

- سـيدي العظيـم، ذا الهيبـة والكرامـة والعـزة والفخـر، صبـاح الخـير.

وبعد قليل:

- سـيدي العظيـم، صاحـب الـشرف والقـوة والجـرأة، أؤمـرني أطيعـك.

وفي المساء:

- سـيدي العظيـم، ذا المجـد والنـصر ومـن لا يجـرؤ عـلى نعتـه بغـير ذلـك أحـد، مسـاء الخـير.

وكان عبـد المجيـد يرتـوي مـن تلـك النعـوت ويشـعر أنهـا تجعلـه ينتفـخ مـن فـرط الزهـو، وكأن أمجـد قـد وُجـد فقـط لـيردد عـلى مسـامعه مـا لم يسـمعه مـن بـشري قـط.

ولكن بدأت ثورة أمجد أسرع مما تخيل!

كان أمجـد يحـب أن يسـأل عـن أصـل الأشـياء، مـن أيـن أتـت الصخـور، كيـف تنبـت النباتـات، مـا هـي النـار، لمـاذا نـأكل الحيوانـات، يسـأل عـن كل شيء وأي شيء، السـماء والمـاء والنجـوم والقمـر والسـحب والألـوان والشـمس والطقـس، وكان عبـد المجيـد يجيبـه دومًـا بمـا يقـدر عليـه مـن علمـه الضئيـل المتخـاذل، فهـو لم يكمـل عامـه الرابـع بالمدرسـة، ولم يكـن لديـه اهتـمام بالعلـوم ولا بغيرهـا، في الحقيقـة لم يهتـم بـأي أمـر بشـكلٍ خـاص طـول حياتـه حتـى لـو كان حرفـة يدويـة!

خـاف عبـد المجيـد أن يُصبـح أمجـد جاهـلًا محـدود الـذكاء مثلـه،

فغافلـه يومًـا وأحـضر الكثـير مـن الكتـب مـن الحـي، كان يتوقـع أن يسـتقبله النـاس حـين يرونـه بالتسـاؤل عـن سر غيابـه الطويـل، ولكــن لم يســأله أحــد وكأنــه سراب لا يُــرى مــن قريــب، فقــرر عقابهـم بسرقـة الكتـب مـن المكتبـة العامـة ليتعلـم منهـا أمجـد.

بعد وقت نذير بدأ التمرد!

بعــد قــراءة أمجــد لعــددٍ مــن الكتــب بــدأ في معرفــة الكثــير، وأصبـح مُقـلًّا في نعـت عبـد المجيـد بالنعـوت الوهميـة الواصفـة لعظمتـه وكرامتـه، ثـم أكـثر في سـؤاله عـن تاريخـه، وعـن عظمتـه تلـك، وسرهـا ومـن أيـن أتـت، وتبـع ذلـك بـأن أخـبره بأنـه يظـن أنــه مــا هــو إلا مريــض بحــب الــذات وأنــه غــير ســوي النفــس جاهــل بالعلــوم والفنــون والحيــاة.

جُـن جنـون عبـد المجيـد وحـاول إقنـاع أمجـد بأنـه عليـه احترامه، ولكــن أمجــد تمــادى في ثورتــه وأخــبره أنــه يظــن أنــه مــا هــو إلا صعلـوك حقـير، وفـاق جنـون أمجـد جنـون صانعـه، وأخـبره أنـه يشـعر بالصعلكـة تـسري في دمائـه فقـط؛ لأنـه مصنـوع مـن قِبلـه، وكان يتمنــى لنفســه صانعًــا لــه قيمــة ومكانــة حقيقيــة وليســت بهـذا الوهـن والزيـف.

لم يتمكـن عبـد المجيـد مـن تحمـل هـذا الكـم مـن الإهانـة، رغـم أنـه قـد تلقـى أضعافهـا طـوال حياتـه، ولكنـه أيضًـا لم يقـدر عـلى إيـذاء أمجـد، فأطلـق صراخـه متألمًـا مصدومًـا حزينًـا.

ولم يمـر أسـبوع حتـى عـاد أمجـد، كان يشـعر بالرعـب مـن العالم، ورغـم كل شيء كان أمانـه الأول مـع عبـد المجيـد، ولكنـه وجـده

قد مات، لا يعلم هل انتحر أم فقط؛ مات! ولكنه وجد دمية أخرى لا تتحرك، صنعها عبد المجيد، كانت تشبه أمجد لكن أدق وأروع، وعلم أمجد أنه سيعلمها كيف تتحرك، وكيف تعيش، وسيجعلها بالطبع، تبجله كل الإجلال، وتطيعه طاعة عمياء!

ثعبان آخر يتخفى

تركته يلتف حول رقبتها، يلتهم شفتيها، ويلتصق بها، وبالرغم من كل مشاعر التقزز التي أصبحت تتملكها وتسيطر على كل حواسها، تلك التي أصبحت تشعر بها نحوه مؤخرًا، لم تستطع أن تنطق ببنت شفة، فهناك عقد مبرم بينهما أن تسمح له بأن يتجول في ثنايا جسدها كلما يحلو له، كان في تلك اللحظة أخضر اللون يصدر فحيحًا، ويلتف حولها بقوة تمنعها من التقاط أنفاسها بحرية، تحملت الدقائق، وبدأت في التنفس حين تركها لينام مصدرًا غطيطًا، قامت ببطء، وضعت الكثير من العطر النفاذ لكي تحاول إبعاد رائحته التي التصقت بها.

في مكتبها الصغير في الشركة المغمورة في الصباح بدأت في احتساء قدحٍ من الشاي، تجاهلت نظرات زملائها، تعودت عليها، فلم تعد تثير فيها أي ضيق، أصبحت كحذائها البالي الذي لا تستطيع تبديله، ولم يعد يجعلها تشعر بأي مشكلة حين يسمح بدخول الأتربة إلى قدميها من الجزء الممزق فيه، تظاهرت بأنها تعمل بجدٍّ إذ بدأت بالتقليب في الدفاتر، سمعت من بعيد موظفتين إحداهما بدينة للغاية تقول للأخرى إنها ترغب في أن تذهب إلى طبيبٍ مختصٍ في الحمياتِ الغذائية، وترد الأخرى ضاحكةً أن عليها أن تتزوج ثعبانًا مثلما فعلت

زميلتهـما فلانـة، فهـو يمـص دمهـا كل يـوم، ويجعلهـا مهـما تناولـت مـن دهـون لا يزيـد وزنهـا.

لم يعـد اسـم «زوجـة الثعبـان» يثـير فيهـا أي ضيـق، لكـن كل مشـاكلها أصبحـت تقتـصر عـلى الاعـتراف بأنها أصبحـت تـراه ثعبانًا كامـل الهيئـة الثعبانيـة، أن تعـترف بـأن كل مـن حولهـا كانـوا عـلى حـق، وأن سـوائله الخـضراء اللزجـة تكسـوها يوميًّـا، وبأنهـا تتحمـل هـذا العـذاب فقـط كي لا تظهـر بمظهـر التائبـة العائـدة إلى حظـيرة الإيمـان بعـد رحلـة فقـدان للـذات.

في الطريـق سـيرًا عـلى الأقـدام للبيـت كانـت تفكـر في السـاعتين اللتـين سـتقضيهما مـن دونـه، ربمـا كان مـن الأفضـل لـو مـرت عـلى والدتهـا المسـنة، سـتتحمل لسـانها السـليط لتقـضي معهـا لحظـات لا بـأس بهـا، تعـرف أنهـا لـن تقـدر عـلى التبسـم هنـاك، ولكـن تظـل تلـك اللحظـات تذكرهـا بأيـام مضـت كان فيهـا بعـض الأمـل، وصلـت لبيتهـا القديـم، كالعـادة تتذكـر كل شيء مـر بهـا هنـا، وكأن ذاكرتهـا هـي عـدو لـدود يرفـض أن يتركهـا مـن دون أن يتسـلل إلى خلايـا عقلهـا ليجعلهـا تكـره أي قـرار اتخذتـه، بـدءًا مـن قـرار أن تسـتمر في الحيـاة وحتـى قرارهـا أن تـزور والدتهـا.

- أهلًا بزوجة الثعبان!

- أهلًا يا أمي.

- ولمـاذا لم يـأتِ معـكِ؟ أيخـاف أن أسـبه وألعـن أمـه كالمـرة السـابقة؟ لـو كان ذا مـروءة لـردَّ لي الصـاع صاعـين، ولكنـه ثعبـان ابـن حيـة، يُـدرك أننـي أنتظـر الفرصـة السـانحة التـي أحرمكـما

فيها من الميراث.

وضعت حقيبتها، جلست جوارها، قالت:

- عمله ينتهي منه بعد ساعتين يا أمي.

- وماذا بكِ؟ وكأنكِ قادمة من مجاعة!

- أنا بخير لا تقلقي.

- لستُ قلقة! ولكن مظهركِ يوحي وكأنكِ أتيتِ للتو من رحلة شحاذة، ما هذه الملابس وكيف تخرجين من بيتكِ بهذا الحذاء.

- إنها فقط ملابس من أجل العمل يا أمي، لكيلا أُبلي الملابس الأخرى الجديدة الفاخرة.

تكذب كالعادة، والكل يعرف أنها تكذب، تقول أمها:

- ألن تكفي عن الكذب علينا؟ ادخلي غرفتي واجلبي لي حقيبتي البنية.. هيا.

تدخل دون كثير من اللغط، تجد الحقيبة مفتوحة وبها رزمة مالية، تجلبها كما هي، تعطيها أمُّها بعض المال، لا تتمنع، غريبة! لا ترفض حتى في البداية ككل مرة، تأخذ المال وتدسه في حقيبتها، ترحل في صمت، وتلمح في عين والدتها حنانًا وحزنًا كانت تلمحه قديمًا، تتمنى لو تلتقط لها صورة وهي بتلك الملامح؛ لأنها كثيرًا ما تفقد القدرة على تذكرها حين تواجه أمرًا عصيبًا وتتمنى أن تستحضر لمحة أي شعور فيه حلاوة

وجهته إليها يومًا ما، من فرط ندرة هذا الوجه الحاني أصبح لديها كذكرى لا يمكن تذكرها.

تشتري بالمال بعض اللحم، سريعًا تعود للبيت وتشرع في طبخه، يدخل الثعبان، تراه بنصف جسد آدمي، تتنفس الصعداء، ليس ثعبانًا كما يقولون عنه، وهي المحقة، وهي تراه ثعبانًا فقط من تأثير الهلوسة التي أصبحت تنتابها نتيجة لنبذ العالم كله لها بعد أن اختارته، كلهم يكرهونها، ابتسمت في وجهه النصف آدمي، وقالت له إن لديهم لحمًا اليوم على الغذاء، ابتسم لها فتحول وجهه كله إلى الوجه القديم، الذي قال لها إن حياته معها ستكون هي الجنة، تركت اللحم وهرولت نحوه لتقبله سريعًا قبل أن يبدأ في التحول، وما أن اقتربت منه حتى تحول كله إلى ثعبان يفتح فاه استعدادًا لقدومها، وحين أحجمت نفث بعض سمومه في وجهها.

في مرحلة المراهقة عشقت القراءة في الأمور الغيبية والسحر والجن، كانت تحب أن تصاب بحالة من الرجفة المرعبة، وأن تحلم بالكوابيس بعد تلك القراءات، ورغم اعتقادها أنها قد تبحرت في تلك الحكايات الخرافية فإنها لم تقرأ أبدًا عن أمر كهذا!

وحين تقدم إلى خطبتها كانت تسترق النظر من خلف الستائر وتراه يجلس متوترًا متحمسًا يشرح لأبيها خططه في الحياة، بعيونٍ عسلية وشعر بني ناعم، رشيق القوام طويل، ذي صوت رجولي عميق، وحب للحياة ينتقل لمن حوله، هكذا كانت تراه وهكذا وصفته لأسرتها، ولكن نظرة الرعب في عيني والدها لم

تجد لها تفسيرًا إلا حين دخلت والدتها إليهم وصرخت:

- ثعبان! فليحضر أحدٌ منكم حذاءً كبيرًا لنقتله.

بحثت عن الثعبان لم تجده، بينما قال أبوها هامسًا:

- إنه كبير جدًّا على أن نقتله سحقًا بالأحذية، كما أنه يطمع في الزواج من ابنتنا!

وفي المساء قالت لها أمها:

- كيف ترغبين في الزواج من ثعبان!

بكت كثيرًا، لم يرق قلب أحدهم لها، حاولت أن تطلب عون الأعمام، تعرف تأثيرهم على أبيها، ولكنهم وقفوا أيضًا ضد رغبتها المجنونة، صرخت .. إنها تراه رجلًا عظيمًا رومانسيًّا، كلماته كالفضة تتلألأ لحظة انصهارها، نظراته ترسل إليها عبيرًا يدفئها في لحظات البرد، ويسري عنها قيظ الصيف، بينما حاول الجميع إقناعها بأنه ثعبان كبير قبيح!

في ليلة ظلماء تركت البيت، ذهبت للمبيت عند صديقة لها، كانت صديقتها هي الوحيدة التي ترى عيونه العسلية وتسمع كلماته المعسولة، بعد مشاورات وشجارات عادت منتصرة على وعد بأن يقبلوا زواجها منه، ولكن دون أن يتدخلوا في أي أمر يخصها فيما بعد، وأن تخرج من حياتهم إلى الأبد بعد تلك الزيجة.

ارتدت ثوب الزفاف وقلبها يطير من فرحة مشوبة بشعور جارف بالحرية، وصوت داخلي يوسوس لها بأنها أخيرًا حققت

شـيئًا بإرادتهـا الحـرة، تزوجـت شـخصًا اختارتـه، وأحبتـه، وبينـما بـدا لهـا كأوسـم مـن أي يـوم مـضى بـدا لـكل أقاربهـا أقبـح مـن أي لحظـة رأوا فيهـا ثعبانًـا يرقـص ببذلـة سـوداء مـع فتـاة جميلـة في إعـلان لزواجهـما.

تذكـر أول مـرة بـدأت تـراه فيهـا بحراشـيف خـضراء كانـت بعـد أسـابيع، حاولـت أن تنكـر أنهـا رأتـه يتحـول إلى اللـون الأخـضر، خاصـة حـين عـاد لطبيعتـه، وظنـت أن تلـك الهـلاوس هـي نتيجـة لتحولهـا إلى منبـوذة في العائلـة ووسـط زمـلاء العمـل، وحـين يعـود لهيئتـه التـي تعرفهـا تحـاول أن تطمـئن بأنهـا كانـت عـلى صـواب، مـن غـير المعقـول أن يكـون الجميـع كانـوا عـلى حـق بينـما هـي فقـط المخطئـة!

ولكـن حـين مـرت الشـهور وأصبـح معظـم الوقـت في هيئـة الثعبـان كامـل الملامـح تحولـت حياتهـا إلى جحيـم، حاولـت اسـترجاع علاقاتهـا بأهلهـا، عـادت ولكـن بفتـور، بينـما لم يتقبلـوا الفكـرة أبـدًا، ولم يكفـوا عـن قـول إنهـا زوجـة الثعبـان التـي سـتنجب ثعابـين صغـيرة.

بحثـت عـن حالـة مماثلـة في العلـم لم تجـد، ذهبـت إلى دجـال يزعـم أنـه خبـير روحـاني أخـذ منهـا خاتمهـا الذهبـي الأخـير مقابـل الكثـير مـن الأبخـرة والزيـوت، جربتهـا بـلا فائـدة، بـل وطلبـت منـه أن يذهـب معهـا إلى طبيـب يشـخص حالتـه، وكان ذلـك يومًـا آخـر مـن الأيـام التـي تلقـت فيهـا ضربـات لا تحـصى جعلتهـا طريحـة الأرض حتـى الصبـاح.

طلـب منهـا أن تـزور طبيـب النسـاء لتعـرف سـبب تأخـر حملهـا في ثعابـين يحملـون اسـم عائلتـه، ذهبـت بـلا تفكـير، أصبحـت كل تحركاتهـا بـلا أي نـوع مـن التفكـير وتحولـت إلى دميـة تنفـذ الأوامر بـلا أدنى محاولـة للاعـتراض، وحـين أخبرتهـا الطبيبـة باسـتحالة أن تنجـب لم تفـرح، لم تحـزن، لم تتأثـر بـأي نـوع مـن المشـاعر، عـادت إليـه وأخبرتـه، غضـب غضبًـا شـديدًا وتوعدهـا بالـزواج مـن أخـرى، وردد كلـمات غاضبـة أنـه قـد تـم خداعـه في تلـك الزيجـة، وأنـه لم يحـظَ بـأي شيء مـن أمـوال أسرتهـا ولا نفوذهـم، وكل ذلـك لأنهـم يرونـه ثعبـانَ!

كان في تلـك اللحظـة كامـل الهيئـة الثعبانيـة، يُصـدر فحيحًـا مقـززًا مـع الكلـمات، وتتطايـر مـن شـدقيه سـوائلُ لزجـة بـدت لهـا سـامة، قامـت في هـدوء لتنـام، لم يتركهـا إلا بعـد أن أخـذ منهـا كل طاقتهـا بعنـفٍ، اعتقـدت أنهـا كالعـادة قـد تحولـت إلى الشـلل لفـترة تسـتعيد فيهـا قوتهـا، ولكنهـا قامـت بعـد أن ارتفـع غطيطـه وذهبـت إلى المطبـخ، عـادت بسـكين ضخـم وحـين غرسـته في رقبتـه ذات الحراشـيف انبثـق الـدم الغزيـر، وفي أقـل مـن دقيقـة تحـول إلى هيئـة إنسـانية كاملـة.

في المحكمـة قبـل حُكـم الإعـدام صرخـت للمـرة الأولى والأخـيرة أنـه ثعبـان! وأن كل مـن حولهـا يـراه ثعبـانَ! خاطبـت والدتهـا كيف تلومهـا عـلى قتـل ثعبـان؟ رأت دموعهـا صامتـة دون كلـمات، قـال أبوهـا: «إنـه زوجـكِ مهـما كان! كيـف تحولـت ابنتـي إلى قاتلـة؟» كادت أن تفقـد صوابهـا أمـام إنكارهـم صفتـه الثعبانيـة فقـط لأنـه أصبـح قتيـلًا! ألم يرغبَـا في قتلـه مـن قبـل؟ لمـاذا حـين نفـذَّت فيـه

الحكم الـذي تأخـر كثـيراً لم يتعاطـف معها أحـدٌ؟ لمـاذا لا يخـبرون هيئـة المحكمـة أنـه مـا هـو إلا ثعبـان!

وتغيَّر لونُ السماء

على رصيف مهشَّم عرض عليها سيجارة، كانت شاردة وقد بدأت قدماها في التململ من تلك الجلسة، فلم تلحظ يده الممدودة، نقر على كتفها بها فانتبهت وأخذتها بلا وعي، ضحك:

- ستدخنين أخيرًا؟

بدأ يسحب بساط تركيزها، فتمتمت باسمةً:

- آسفة، لم أنتبه خذها قد تنفعك أنت!

فجأة فكرت، كم تغيَّرَ، وكم تغيرتْ. كان أقرب ثلاثة إليها يجلسون حولها، هؤلاء الذين لا يشبهونها إلا في طريقة الوصول إلى النتائج ذاتها. أصدقاء ما جمعهم إلا وحدة التفكير، اختلفت ظروفهم ولكن تشابهت مشاعرهم، لو قابلتهم في فترة المراهقة ما تخيلت أن يصبحوا أقرب إليها من الأهل.

فكرت، متى يأتي التغيير؟ على غفلة أم تدريجيًّا؟ قامت متحمسة، نادرًا ما تتحمس، ونظرت في وجوههم الواجمة وهم جالسون، وقفت أمامهم تسألهم:

- متى بدأ التغيير؟

لم يرد أحد، كانوا في عالم آخر، صاحت وهي تصفق جذلًا:

- انتبهوا أفيقوا، حلقة نقاش ستبدأ الآن!

نظر الجميع فقالت:

- ها، متى بدأ التغيير؟

***

فاجأها بسرعة رده وهو يدخن وكأنه كان ينتظر السؤال:

«تغيرت أنا منذ فترة، في ذلك اليوم الذي عرفت فيه حقيقة نفسي، يوم انكسر غروري أسفل هراواتهم وضرباتهم المتلاحقة، عرفت أنني لا أساوي ثمن حذائي الذي أهدتني إياه أختي حين عادت من الخارج تحمل شهادة الدكتوراه، يوم احتفلنا بها كنت سعيدًا بالحذاء الذي أعلم أنه قد يرافقني لعشر سنوات، حذاء من خامات تتحمل الصدمات حتى إن اسمه «safety» أي الآمن. سيجلب لي الأمن والأمان، لن أضطر لشراء غيره، ثمنه ليس خسارة رغم أنه يساوي أضعاف راتبي. يومها أتذكرين؟ كنت أرتديه وسط الحفل وأضحك وأجري خلف الأطفال أخيفهم به: لو ضربتكم بحذائي الآمن سأصنع في جلودكم علامات. وقمت بركل كرسي الصالون لأريكم جميعًا أنه لن يُخدش. لا تنظري لي هكذا، كان الخدش الذي أحدثْتُه تلك الركلة الحمقاء صغيرًا، أصغر من خدش روحي حين خلعوه من قدمي وألقوه بعيدًا؛ لتتعرى لهم أقدامي النحيلة ويستطيعون ضربي بحرية.»

ضحك بعذوبة وهو يضيف:

«لا لم يكن لا آمن ولا فيه أي ذرة من أمان، لا الحذاء ولا الجدران ولا مزلاج الباب الحديدي على بوابة بيتنا.»

***

التفتت صديقتها الثانية إليه وعلى وجهها بسمة حانية:

«أمان؟ مضحك أنت، لا أمان يا حبيبي، لا راحة. هناك فرحة ربما، قصيرة، ولكن لا أمان ولا سلام داخلي، انسَ، أين تظن نفسك؟ في مزرعة لجمع الفراولة بأستراليا؟ أنت بالشرق الأوسط يا عيوني، مسكين؟ لا لست مسكينًا، كفَّ عن لعب دور الضحية، ألا تؤمن بتناسخ الأرواح وحلول الأجداد فينا؟ آسفة لقد نسيت! أنت لا تؤمن بالخرافات، ولكن صدقني أخطاء وغباوات الأجيال السابقة هي أخطاؤنا نحن أيضًا، وإلا لماذا نطالب بحقهم بعد مرور عقود على وفاتهم؟ أتريد ميراثك منهم دون أن تدفع ديونهم؟»

ثم نظرت إليها وقالت:

«تسألينني متى تغيرت؟ وراحت مني تلك الروح؟ كلنا عندنا لحظة انتقال من البلاهة إلى الذهول! لحظة تفتحَ فكيك فيها وتجحظ عيناك ولا تدري ما هذا! لماذا؟ تريدينني أن أتذكر تلك اللحظة بالضبط والسبب فيها؟ عندي أكثر من لحظة، أولها لحظة الميلاد الغبية الذي أدركت فيها أنني انتهيت، صرت منكم ويا لمأساتي، سأعيش مسرحياتكم كاملة وشهواتكم

بحذافيرهـا ومخاوفكـم بعبثيتهـا بـلا زيـادة أو نقصـان.

تلتهـا تلـك اللحظـة التـي تركـوني أهـلي مـع الغربـاء، لا تتشـتتي وتفقـدي خيـط قصتـي، أنـا أقصـد أول يـوم في المدرسـة! لا لم يعذبنـي أحـدٌ ولم يحرمنـي أحـدٌ مـن أي شيء ولكـن ضـاع منـي الأمـان أن غـدًا يـوم جميـل، أصبـح غـدٌ هـو الهـم بالنسـبة لي مـن وقتهـا.

وبعدهـا؟ أنـتِ تعلمـين! لحظـة وضعـي في غرفـة وحـدي لأتأدب، لأكـف، لأصمـت، وقتهـا وصـل الذهـول منتهـاه، أسـموه سـجنًا أو معتقـلًا أو أسرًا، أسـموه حكـم محكمـة، أسـموه مـا أسـموه عليهـم أسـمى اللعنـات، لحظـة تحكـم الآخريـن في مصـيري، حتـى لحظـة خروجـي كنـت ذاهلـة وودت أن أبقـى بالغرفـة الضيقـة الرطبـة، أن أقـرر مسـاري وحـدي، هـل نجحـت؟ لا بالقطـع لا»

***

نظـرت إلى رابعهـم وكانـت تفكـر فيـه منـذ البدايـة، لـو تحـدث لـكان هـذا نـصرًا لهـا، قالـت:

- وأنت؟ أليس عندك لحظة تغيير؟

لم يرد.

كادت أن تيـأس مـن صمتـه ولكنهـا صبرت، فليتدبـر كلماتـه، قـال بصـوتٍ خفيـض يـكاد أن تكـون نبرتـه كافيـة لوصـول مـا بداخلـه إليهـم:

«يـومَ رأيـتُ جمـوعَ النـاس تحتشـد بـلا توقـف عـن الزيـادة،

كتلـة بشريـة تـزداد حجـمًا كل دقيقـة، يومهـا نظـرت للأعـلى، تعرفـين أن طـولي يسـمح لي بالتنفـس وسـط أي جمـع مـن البـشر بحريـة، وأن أراهـم مـن جميـع الاتجاهـات، حـين نظـرت فوقهـم شـعرت أن عنقـي يطـول ويصـل حـد السـماء التـي تغـير لونهـا في عينـي، مـررت بجـوار متجـر كان بـه مـرآة، سـارعت إليهـا وأنـا الـذي كنـت أكرههـا، وجـدت ملامحـي قـد تغـيرت بالكامـل، ألـواني صـارت مختلفـة وعيـوني هـي عيـون شـخص آخـر.

هـل كانـت الأشـجار خـضراء؟ الشـمس مـا كان لونهـا؟ أكنـت مصابًـا بعمـى الألـوان حتـى إننـي شـفيت منـه بعـلاج قبائـلي غريـب، وهـو أن أرى أهـل بـلادي يتوحـدون ويهتفـون وبحقهـم يطالبـون؟ لماذا لم يصـف لي طبيـب العيـون هـذا الـدواء مـن قبـل، لم يكـن يعرفـه لأنهـم لم يجربـوه في العقـود السـابقة بهـذا الشـكل، المسـاكين، جيـل آبائنـا عـاش بعمـى الألـوان ولم يُـرَّ إلا نصفهـا، كانت عـلى عينيـه غمامـة أصابتهـم بعـشى ليـلي ونهـاري، طبعًـا لا تصلـح كل العلاجـات لـكل الأعـمار، ولا أنـواع العيـون، هنـاك مـن ضمـرت عينـه للأبـد وانتهـى أمـره.

تغـيرتُ حـين علمـت أن عينـي لم تضمـر بعـد، وأنهـا قـادرة عـلى رؤيـة تغـير كاسـح في بلـدي، أن تـرى الجـمال هنـا في تلـك الأرض وفي تلـك النفـوس الـذي ظننـت أنهـا قـد ماتـت، بكيـت؟ نعـم انهـرت مـن البـكاء فرحًـا، لمـاذا كانـت لحظـات التغيـير بالنسـبة إليكـم هـي لحظـات بـؤس وشـقاء؟ لقـد كانـت بالنسـبة لي هـي يـوم مولـدي الحقيقـي! لا تنظـروا لي مشـفقين يـا مجانـين يـا أغبيـاء يـا مدعـي العلـم! نعـم لازلـت سـعيدًا بتلـك اللحظـة وهـي مـا

أصابني بإدمان الفرحة حين سَرَتْ في عروقي، صمتي الآن وهواني هو لأنني أعاني أعراضًا انسحابية من هروب مخدر السعادة من دمي بعد أن أدركت أن السعادة كانت وقتية، والحصول الدائم عليها يحتاج مثابرة لم تكن في الحسبان.»

***

«وأنتِ ألن تذكري لنا لحظات التغيير؟ التبديل؟ حين لم تعودي أنتِ وعلمتي أنها بداية لروح أخرى تسكنكِ؟»

كان يقولها هازئًا؛ لأنه يعلم لحظتها جيدًا، لحظة فقدها لأول عزيز عليها، ذلك الذي كان خامسهم، ولكنها قالت بخفوت أنها ستتحدث لاحقًا، فكرت قليلًا أم الآن؟ ولما التأجيل! لقد أجلت أن تبوح له بأي شيء حتى رحل! لن تبوح حتى أمام من كانوا رفاقه خوفًا من ماذا؟ خوفًا وهيبة من الاعتراف؟! كلهم يعلمون، يُخفون أنهم يعلمون. يتظاهرون بعكس ما يبطنون؟ حسنًا فلينتهي زمن التخفي، فتحت الصندوق الأسود وقالت:

«قديمًا كنت أكره أن أشرككم في ذلك، ولكن كره الأشياء وحبها قد تغير تمامًا في مفاهيمي، كل شيء تغير. متى تغير كل شيء؟

نعم يوم فقدته، يوم راح بلا رجعة، يوم أخبروني أنه هناك، في عالم آخر كل معلوماتنا عنه من إيماننا الذي يأتينا من الأجداد، يوم أصبحت أتساءل يوميًّا وكل لحظة هل لو متُّ الآن سأذهب إليه وتراه عيني فورًا؟ أم سأنتظر حتى أستقر في

عـوالم الأمـوات وأبحـث عنـه وسـطهم، هـل سـيكون البحـث سـهلًا لتمتعنـا بالشـفافية هنـاك أم سـتظل الصعوبـات تلاحقنـي أم أننـي أهـذي وانتهـى الأمـر ولـن أراه لا هنـا، ولا هنـاك.»

تنهـدت، تـلاشى المشـهد الحـالي مـن أمامهـا، وجـدت نفسـها تقـول:

«حسـنًا هـا أنـا أبـوح لـك، هـل تسـمعني؟ لـن أخجـل أن أبثـك ولعـي بـك، في العـالم الآخـر لا يوجـد خجـل! لـن أخفـي نصـف هلعـي عليـك، سـأخبرك أخـيرًا بـكل شيء، سـأكف عـن تصنـع نصـف الاهتـمام ... لـن أخـاف أن تقـول عنـي متيمـة بـك، فتبتعـد عنـي بحثًـا عـن أخـرى لم تهـب روحهـا لـك لتبحـث عـن الصعـب بعـد ضمانـك للسـهل.

هنـاك سـأمنحك أنـا الواهنـة الضعيفـة القـوة وسأمسـح عنـك الخـوف، الخـوف مـن الوحـدة، مـن الألم والنبـذ والضيـاع، سـأهديك أنـا الخائفـة عـلى الـدوام الأمـان، سـتأمن مـن البعـاد عـن أحبابـك وسـتراهم في عيـوني، سأسـمح لـك أن تتشـبث بي كأيـام تشـبثك بثـوب أمـك باليمنـى وباليـد الأخـرى بلعبتـك الصغـيرة البريئـة التـي لا تختلـف عـن أي لعبـة أخـرى سـوى أنهـا لعبتـك الحبيبـة التـي أصبحـت جـزءًا منـك أنـت، قـد تكـون أقـل جـودة وروعـة مـن الألعـاب المعروضـة في المحـلات بألـوان باهتـة، ولكنـك تتشـبث بهـا لأنهـا أخـذت جـزءًا من روحك الشـجية الباحثة عن الحنـان والدفء. لا يمكـن أن تفكـر أننـي جننـت حـين أقـول لـك تعـال هنـا عنـدي، هنـاك يفهمـون المشـاعر دون التفكـير في أنهـا تعنـي فسـاد الأخلاق، سـتدرك أننـي فقـط أسـعى لأن أعطيـك مـا قـررت أنـه ليـس إلا

لـك، أن أسـلمك باسـمة حانيـة مفاتيـح نفـسي، أنـا التـي لم تعـاني ولم تـذق الفقـر والجـوع والمـرض ولم أفقـد عزيـزًا قبلـك، سأنسـيك كل مـا مـررت بـه حـين كنـت تعافـر وحـدك بحثـا عـن الضحكـة وعـن هنـاء في أرض الظلـم.

سـأكتب لـك هنـا شـهادة ميـلاد وسـأمحو مـن عينيـك تلـك النظـرة الخجولـة المكسـورة اليتيمـة، فقـط سـأعطيك البدايـة التـي تسـتحقها ولـن آسرك بعدهـا وأنـا أعلـم أنـك خلقـت تلهـث خلـف الحريـة، سـأتركك تجـد مسـارك ولـو كان بعيـدًا عنـي لـن أُولِـمُ قلبـك بحـزني عـلى فراقـك لي وسـأعتبره فـراق رضيـع كان بائسًـا محتاجًـا لأحضـان أمـه تركهـا حـين شـب وقـام ولكـن ظـل مدينًـا لهـا بأنهـا أحسـنت رسـم بداياتـه.

ولكـن يظـل حلمـي مؤجـلًا باللحظـة التـي أسـافر فيهـا إليـك، قلقًـا أن تتلقفـك غـيري ممـن يتقـن فنـون الجـذب، وتسـتمر مخـاوفي تـراودني ألا أحقـق أحلامـي فيـك.»

***

صمتـوا! مـا توقعـوا أن تتحـدث بتلـك النـبرة، نـبرة أمـل؟ أحلامهـا أصبحـت في عـالم المـوتى تتجسـد؟

قاطعـت صمتهـم قائلـة وقـد شـاءت أن تذكـر كل شيء دفعـة واحـدة:

«وهنـاك يـوم آخـر غـيرني، لكنـه يـوم حلـو عذباتـه وحيرتـه كانـت كالخَـدر الجميـل يـسري في دمـي، يـوم قابلتـه بعـد سـنوات

مـن معرفتـي بـه، أتذكـرون كـم كان مشـهورًا وكنـت أنـا صغـيرة أبـدأ مشـواري كمعيـدة في الجامعـة بحـماس؟ نعـم يـوم النـدوة أنـا التـي اقترحـت اسـمه، كنـت أعلـم أننـي قابلـة للتعلـق بـه فقـط مـن كلماتـه التـي أقرؤهـا لـه في جرائـد الـرأي الحـر المعـدودة، نعم روح الإنسـان تنسـاب في كلماتـه المكتوبـة ويشـعر بهـا القـارئ وكأنه يسـتحضر كاتبهـا ليجلـس معـه، ليسـت مراهقـة منـي صدقـوني، عشـاق الكلمـة يعرفـون مـاذا أقصـد، كلـمات الكاتـب تصنـع علاقـة بينـه وبـين القـارئ لا تنفصـل، تجعـل القـارئ حـين يشـاهد كاتبًـا يفضلـه في حالـة مـن الذهـول، حـين قابلتـه تقمصتنـي تلـك الحالـة مـع حالـة أخـرى مـن العبـث.

يومهـا تلاعبـت بي مخيلتـي الخصبـة وتداعـى إلى ذهنـي دقـة وصفـه للحسـناوات وبراعتـه في تصويرهـن كآلهـة للجـمال، لم يكـن هـذا يزعجنـي حـين كنـت أقـرأه في كتبـه، ولكـن حـين قابلنـي لمحـت نظرتـه الفاحصـة فارتبكـت وتذكـرت أنـه لا تفوتـه شـاردة ولا واردة، تلعثمـت وعـلى وجهـي ابتسـامة غايـة في الخجـل، أنـا التـي تقـف تحـاضر أمـام المئـات ولا يرتعـش لي جفـن.

فكـرت في نقـاط قـوتي لأكتسـب بعـض الثقـة فوجـدت أننـي لا سـاحرة ولا فاتنـة، جـمالي كلـه في لفتـاتي وضحكتـي الخجولـة حـين أنظـر بعيـدًا، في قوامـي الضئيـل الـذي يميـزه انحنـاءات وثنيـات أنثويـة رقيقـة يحبهـا الرجـال، وبينـما أخبـئ بعنايـة شـعري الجميـل تظهـر في عينـي بـراءة محببـة تختلـط مـع نظـرة حنـان جارفـة، فقـط! لا جـمال باهـر، لا فتنـة طاغيـة، لسـت واحـدة ممـن يشـهقن لهـا ولكـن لي سـحري الخـاص الـذي يتسـلل إلى القلـوب

بعد لحظات من الحديث معي، حاولت إرضاء غروري، فانكسر أكثر أمام نظراته الواثقة الهادئة، بعد أعوام من معرفتي به لم أقل له إنه منحني الكثير فقط بحديثه معي في تلك الأيام الساحرة، كان ينظر في عيني مباشرة فيكسبني فورًا أهم ما كان ينقصني، شعورًا فوريًّا بالأمان، كنت أظن أن هذا الرجل يحميني بنظراته فقط! يكفي أن أرى نظرته تلك في صورة له ليغمرني هذا الشعور.

لم أقل له إنك أخدت مني عجرفتي واقتناعي أنه أبدًا لن يهزمني أحد حد التفريط في هدوء نفسي الداخلية، جعلتني مريضة بالقلق عليك، وبتمني السعادة لك، وبالرغبة في أن أكون أجمل النساء، سحبت بساط ثقتي بنفسي بخفة ومهارة وجعلت نظراتك التي تشعرني بالحماية تشعرني في الوقت ذاته بالارتباك خوفًا ألا أكون قد نلت إعجابك، هل لو كنت أخبرته لفاجأته صراحتي واعترافاتي الخطيرة؟ أتخيله يضحك ضحكة عالية كان من النادر أن أراه يضحكها، كانت تروقه دعاباتي دومًا، ولكن أقصى تعبيراته كانت بسمة عريضة يتبعها نظرة للأرض يرفع رأسه بعدها ليعيد النظر في عيني، عيني العادية السوداء الكحيلة، ليست كعيون الإيطاليات الواسعة ولا الهنديات المها ولا العيون الفرنسية التي كان يعشقها ذات اللون الأكثر صفاء من بحر لم يمسسه بشر، هذا كان وصفه لها فكيف سيصف عيوني أنا التي لا تختلف عن عيون أغلب بنات بلدي؟ هل كان من الممكن أن أخبره أنني لا أحب أن يصف أحدهم عيني بالجميلة الساحرة ولكن يأسرني أن يصفها بالحانية؟

تلـك الأفـكار حولتنـي إلى بلهـاء أمامـه تضحـك بـلا تحفـظ تتحـدث بـلا تفكـير، أُكـثر الهـروب مـن نظراتـه المعتديـة عـلى تفاصيـلي والتـي كنـت أخـشى أن تظلمنـي وتضعنـي في خانـة العاديـات اللـواتي لا يسـتحققن أن يفـرد لهـن صفحـات الوصـف. كنـت أرى أننـي أسـتحق كل جميـل، ولكـن لا أعلـم إن كنـت أسـتحقه هـو بالتحديـد أم لا، لم أتمنـاه أصلًا ولم أفكـر في ذلـك ولـو للحظـة، كان في نظـري جـوادًا جامحًـا يرفـض الـسرج، فلـم أتمنـى أن أكـون أنـا قيـده.

وهـا قـد رحـل الجـواد بعيـدًا، أخـذوه في غيابـات الجـب حتـى ادعـوا انتحـاره، رمـزُ أمـلي وحبـي للحيـاة، فـماذا تنتظـرون منـي...»

***

عـلى الرصيـف المهشـم اسـتمرت جلسـتهم، قـام مـن كان أكثرهـم صمتًـا لأول مـرة منـذ فـترة، تحـرك قليـلًا، دار حولهـم. قـال لهـم فجـأة وبسـمة بلهـاء طفوليـة عـلى شـفتيه «أتـرون السـماء؟»

لم يردوا.

قـال «انتظـروا أنـا لا أهـذي، أقسـم أن لونهـا في عينـي لم يتغـير مـن ذلـك اليـوم، أدرك أن وقتهـا كان نهـارًا سـاطعًا، أدرك أن عيـوني آلمتنـي حـين أجبرتهـا عـلى النظـر في سـطوع الشـمس في تلـك اللحظـة، ولكـن أقسـم، حتـى وهـي كاحلـة في ليلتنـا الطويلـة هـذه لازلـت أرى لونهـا مشرقًـا»

حماسـه المسـتجد جعلهـم يرفعـون رؤوسـهم، اسـتلقت هـي عـلى

الرصيـف عقـب كلماتـه، حتـى تـرى السـماء بشـكلٍ أفقـي، بـدأت النجـوم تظهـر أوضح! بكـت؟ لا! شـعرت أنهـا معـه، معهـم، هنـاك! هنـا عـلى الأرض يوجـد تغيـير، ولكنـه يحتـاج مزيـدًا مـن النظـر للـون السـماء الجديـد.

هُم الآخرون

بصوت خفيضٍ قال الأب:

- بدأت أشعر أنهم بالفعل يكرهوننا.

التفتت إليه الأم وردت:

- كنت أعتقد أنهم لا يشعرون بوجودنا من الأصل.

دخل الابن في الحوار قائلًا:

- مـا أدراكِ أنـتِ! نحـن مـن يضطـر للاختـلاط بهـم يوميًّـا في العمـل والجامعـات.

شرد الأب وعاد يردد:

- حقًّا يكرهوننا.

فاستطرد الابن:

- ويتمنون لو اختفينا ومُتنا وفَنينا.

بدا على الأم الارتياع وقالت:

- لماذا كل هذا؟ نحن لم نؤذهم يومًا!

انفعل الابن وبدأ صوته يرتفع كالصراخ:

- وجودنا سببٌ كافٍ ليُشعرهم بالأذى! والخزي والعار.

جاءت الابنة وتسللت للحوار:

- إنهم يأكلونني بأعينهم، ويعتبرونني فريسة سهلة خليعة ساقطة.

وأضافت بصوتٍ هامسٍ خائفٍ يرتجف لم يسمعه سواها:

- وتمتد إليّ أيديهم ليلًا ونهارًا، إنهم كابوسٌ لا ينتهي.

فتحمس الابن وهو يقول:

- ماذا لو هاجرنا فعلًا؟ أليس ذلك أفضل الحلول؟

قالت الأم بخوف:

- وهل هناك سيتقبلوننا؟ نحن الغرباء في كل مكان.

فازدادت في وجه الأب علامات الحزن العميق الذي تأصل في ملامحه ولم يعد يلفت الأنظار، ثم قال بوهن:

- لن أترك مكانًا وُلدت فيه، سأموت على سلم تلك الطائرة التي ستنقلني إلى أرض الغرباء.

تمتم الابن بتوتر:

- نحن غرباء يا أبي هنا أيضًا، شئت أم أبيت تلك لم تعد أرضنا.

فقال الأب غاضبًا:

- لا تنطق هذا مطلقًا! بل هي أرضنا لكنهم احتلوها بثقلهم وجهلهم، تحملناهم سنين ولن يضيرنا أن نتحمل المزيد.

ردت الأم وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنهم لتخفي عبرات انسكبت رغم كبتها طويلًا:

- لا تمزحوا، لن أقبل أن أعيش في غربة أقوى من غربتي التي عشتها طوال حياتي، تزوجت أبوكم وأتيت لأعيش هنا معه ومن يومها لم يغمض لي جفنٌ من الخوف.

الابنة بنبرة حزينة:

- أول مرة أسمعُكِ تقولين هذا يا أمي! كنت أظنك سعيدة معنا!

الأب وقد ظهرت عليه علامات اليأس:

- هم أيضًا يظنوننا سعداءَ معهم. نضحك صباحًا في وجوههم، ثم نجلس وحدنا ونقلب شاشات التلفاز التي تمتلئ بوجوههم، فنكاد أن نفرغ ما في بطوننا تقززًا منهم.

- الأم: لكن منهم المنصفين.

- الابن: لا لم يخلق بعد!

- الابنة: كان لي في الماضي أصدقاء منهم، كنا لا نفترق، فرقتنا الأيام لا الأحداث.

- الابن: كنتم تخادعون أنفسكم.

- الأب: لكـن كنـا نضحـك ونبـكي معًـا عـلى الأشـياء ذاتهـا، كانـوا يبتسـمون حـين يرونـني فقـط، كانـت مودتهـم مـن القلـب.

- الابن: وما تخفي صدورهم أكبر.

- الابنة: لكن ... في الماضي نسيت أننا لسنا منهم.

- الأم: وأنا تمنيت أن ينسوا هم كذلك.

- الابنــة: لقــد وصــل بي الأمــر أن تمنيــت أن أكــون منهــم، لم يســامحوني مطلقًــا عــلى كــوني مختلفــة عنهــم.

- الابن: بل تمونوا الفتك بكِ والتشفي فيكِ.

- الأب: هل يكرهوننا بنفس القدر الذي نكرههم به؟

- الأم: هــل نكرههــم حقًّــا! اعتقــدت طــوال عمــري أنهــم هــم البادئــون.

- الابــن: أنهــوا هــذا النقــاش العقيــم اليومــي الــذي يحــدث بعــد كل حــدث جسـيم، لابـد مـن حـلٍّ جـذري، نقتلهـم ونعيـش وحدنـا في أرضنـا.

- الأب: ومنــذ متــى كان العنــف هــو كل مــا نفكــر فيــه، وهــم يدَّعــون أنهــا أيضًــا أرضهــم.

- الابنة برعب: ماذا لو كانوا على حق؟

- الابن: لكنهم قتلة سفاحون سفاكون للدماء!

- الأم بـتردد: ومنـا أيضًـا مـن حـاول التخلـص منهـم، فسـفك الدمـاء.

- الابـن: أتحاولـون أن تكونـوا منصفـين مع مـن يتمنـى هلاككـم كل سـاعة!

- الأب: بـل أحـاول جاهـدًا ألا أكـون صـورة طبـق الأصـل منهـم، ألا أفعـل بالضبـط مـا كرهتـه فيهـم!

- الابنـة: قديمًـا كانـت لي صديقـة منهـم، نسـخة طبـق الأصل مني واعتقـد الجميـع أننـا شـقيقتان، وكان ذلك يضحكنا، ويسـعدنا.

- الابن: الآن لو رأيتِها ستجدينها قد عادت لتشبههم.

- الابنــة: كيــف هــذا وقــد كان لهــا ملامحــي نفســها، اللــون القمحــي والعيــون البنيــة، والشــعر الأســود المجــدول في ضفائــر حتــى نهايــة الظهــر.

- الابن: لا أعلم ... لكل قاعدة شواذ.

- الأم: من جعلها قاعدة يا بني، ربما كنا مخطئين.

- الابـن: أي أنكـم ستعيشـون هكـذا بقيـة عمركـم! لا لـن أحتمـل المهانـة وسـأهاجر. سـأهاجر حتـى لـو سـافرت وحـدي.

- الأب: ستظل وحدك غريبًا.

- الأم: ستسير أبدًا بعيدًا.

- الابنة: لن تعرف أصلك بعد الآن.

- الابـن وقـد بلـغ غضبـه حـد الجنـون: وهـل تعرفـون أنتـم أصولكـم؟ لا أحـد يعـرف شـيئًا، ربمـا كانـت أصولنـا منهـم، نعـم لقـد كان جدنـا واحـدًا بـلا شـك، وإلا فبـما تفـسرون تشـابهنا المطلـق في الملامـح.

- الأب: وفي العنف وفي العصبية.

- الأم باسمة: وفي النكات والفكاهة.

- الأب: وفي حب الأرض نفسها.

- الابـن: نعـم حـب الأرض، تشـاجرنا عليهـا حتـى لفظتنـا جميعًـا وكرهتنـا.

- الأم: لمـا لا تقـل إننـا نحـن مـن كرهناهـا، والدليـل أنـك سـتبحث عــن غيرها.

- الابـن منهـارًا: بـل هــي مـن كرهتنـي وأعطتهـم هـم كل شيء، ملكتهـم إياهـا وتركتنـي أُظلـم فيهـا.

- الابنة: آه لو أحبونا.

- الأم: لو تركونا نعيش معهم وقسموا الخير علينا.

- الأب وقـد بـدت الحـيرة في وجهـه عظيمـة: وهـل لـو كنـا مكانهـم لفعلنـا ذلـك.

- الابن شاردًا: ربما...

- الابنة هامسةً: لست متأكدة.

- الأم: حقًّا إنها لمعضلة!

فهل أعود

وجد تلك الرسالة منها، قد تم إرسالها منذ ساعة حين كان في الاجتماع:

«لقد شربت زجاجة الكودين كلها. كنت في تلك اللحظة أرغب في الخلاص وبشدة، كانت لحظة مجنونة خرجت فيها عن السيطرة أعترف، ولكنني بعدها بثوانٍ فقدت تلك الرغبة ورحلت عني، فهل يمكن أن أعود؟»

هرول خارجًا من الشركة وهو يحاول الاتصال بها بلا جدوى، كان الهاتف يرن ويرن وفقط، نبض قلبه العنيف مع تنفسه السريع جعل رأسه ينفجر بصداعٍ فوري مريع، ولكن ذلك لم يمنعه من ركوب السيارة والقيادة السريعة نحوها، نحو البيت. كان يفقد السيطرة على أعصابه ويشعر أنه سيبدأ بالبكاء الهستيري أو الصراخ أو ضرب رأسه في المقود، ولكنه قرر التماسك، لأول مرة لا ينفجر غاضبًا محدثًا جلبة كالمعتاد.

كان يحاول أن يفكر بشكلٍ منطقي، يحتاج الدواء إلى نصف ساعة ليبدأ في العمل، هكذا قالت الطبيبة حين وصفت هذا الدواء لها كعلاج للسعال منذ عام، يرغب الآن في قتل تلك الطبيبة حين تذكر أنها قالت لها مازحة لا تُكثري من القطرات

عـن العـدد الـذي كتبتـه لـكِ؛ لأن هـذا الـدواء كثرتـه تـؤدي إلى الوفـاة، كاد أن يـضرب المقـود بيـده غاضبًـا ولكنـه تماسـك حـين تذكـر وكأن هـذا هـو السـبب الوحيـد، أمامـه سـاعة أخـرى للوصول إلى البيـت. لابـد مـن حـل آخـر.

ازداد ارتعاشــه، ردي يــا ســارة، ردد ذلــك عــدة مــرات بصــوت خافـت، بعـد أن توقـف في زحـام لا يـدرك مـداه، وراح يفكـر في حلٍّ آخـر، لا علاقـات مـع الجـيران، لا أقـارب في هـذا المجمـع السـكني بتاتًـا، أصدقـاؤه المقربـين لا يزالـون في الشركـة لا يعلمـون شـيئًا، لا يوجـد شيء اسـمه إسـعاف أو نجـدة في مـصر، هـل سـيفقدها؟

وصـل لتلـك الفكـرة ووصلـت معهـا الرعشـة إلى رأسـه، سأتماسـك، قالهـا لنفسـه، سـأنقذها، اللعنـة عـلى الاجتماعـات، اللعنـة عـلى كل شيء جعلهـا تفكـر في هـذا، ألم تكـن تبالـغ حـين قالـت لـه: يومًـا مـا سـأقتل نفـسي؟ لقـد كانـت تبتسـم، لم يصـدق أنهـا قـد تجـرؤ عـلى ذلـك، لم يتصـور ولم يتخيـل، مسـتحيل، ربمـا لم تفعـل؟ لمـاذا إذن لا تـرد عـلى الهاتـف.

تذكر على حين غرة، مرة، كانت تبكي وتقول:

- هناك من يحاربني.

قال لها وهو يقلب قنوات التلفاز:

- كفي عن هذا الهراء، أنا معكِ، لا أحد يقدر على محاربتك.

- إنـه جـزء مـن عقـلي، ينفصـل عنـي، ويحاربنـي، يحيـل حيـاتي إلى جحيـم.

نظر لها فرأى العبرات فاقترب وقال:

- فقط لا تفكري في هذا، فقط كوني قوية كالمعتاد، كل شيء على ما يرام، حياتنا ممتازة، حاربنا كثيرًا ونجحنا، ما المشكلة؟

- لا مشكلة، المشكلة أنه لا مشكلة؛ ورغم ذلك فأنا أشعر أن هناك عفنًا يأكل خلايا روحي ويجعلني أنهار.

- لن تنهاري، أنا معك.

لم يكن يفهم، ظن أنه بهذا يدعمها بما يكفي، ربما كانت الهرمونات، ربما لم تكن سارة بهذه القوة التي ظنها، وحين قالت مرة إنها قد تنتحر سخر منها، أو مزح معها، أيهما أصح لا يعلم، ربما لم تكن حقًّا مستعدة للحمل في هذا الطفل، ماذا لو كانت حقًّا تعاني، كيف لم يدرك خطورة الأمر!

الآن هو ضائع تمامًا، يتخيل أنه يقص هذا كله على سارة فيما بعد، بينما يجلسون غدًا أو بعد غد مساءً بلا هدف في الحديقة الصغيرة جدًّا والجميلة جدًّا في بيتهم، كان مصدومًا ووعيه يتسرب منه ببطء، يرفض التصديق، ليس أن سارة قد ترحل عنه إلى الأبد، بل أنها فكرت وقررت وأقدمت على فعل ذلك، وكان يشعر أنه بعيد ولا يقترب نهائيًّا منها، بدا البيت بعيدًا جدًّا، من زمن سحيق جدًّا.

بدأ يشعر بفقدان للسيطرة، ولكنه تماسك حين شعر بأنه يقترب من البيت، حتى رن الهاتف، التقطه سريعًا فإذا بها سارة!

- كريـم، أنـا آسـفة جـدًّا، أُغـشي عـليَّ، لم أفـق إلا الآن. في الحقيقـة أفقـت ولكـن كنـت مرهقـة جـدًّا إلى حـد أننـي لم أتمكـن مـن الإمسـاك بالهاتـف، لقـد شربـت الكوديـن، كانـت كميتـه قليلـة ولكننـي عدلـت عـن رأيـي، فحاولـت أن أفـرغ معـدتي، أرهقنـي هـذا كثـيرًا. لكننـي بخـير. أنـا بخـير.

كان يسـمعها وهـو يقفـز فـوق الـدرج، وحـين أنهـت كان قـد فتح البـاب، شـعر بأنـه قـد دلـف إلى الجنـة، وجدهـا تجلـس منهكـة عـلى الأريكـة وتبتسـم، جلـس بجوارهـا، أخفـى وجهـه بيديـه وبـكى بـلا انقطـاع، لقـد عـادت، ولكـن ربمـا لـن يسـتطيع هـو أن يعـود مـرة أخـرى.

كذبة كل يوم

نساءٌ نحـن .. لكـن نعيـش بالضبـط كـما كنـا نعيـش في فـترة المرحلة الثانويـة والإعداديـة .. الجديـد أننـا تعودنـا مؤخـرًا أن ننـزل كل يـوم تقريبًـا في السـاعة الثالثـة بعـد منتصـف الليـل إلى الشـارع أنـا وشـقيقتي بملابـس البيـت وبشـعرنا الـذي تـم عقصـه إلى الخلـف .. يكـون كل مـن ببيتنـا نيـام .. نتسـلل تغمرنـا نشـوى .. نهبـط الـدرج ثـم نفتـح بـاب البنايـة المغلـق مـن الداخـل ونخـرج للشـارع المظلـم الهـادئ تمامًـا .. في ذلـك اليـوم كنـا في أوائـل أبريـل.. كان الشـتاء يودعنـا بنسـمات بـاردة جعلتنـي أرتجـف قليـلًا لكـن بـلا قشـعريرة حقيقيـة..

كنـا متفقتـين منـذ بدأنـا تلـك المغامـرات اليوميـة التـي لا تهـدف إلى أي شيء أننـا لـو سـمعنا صـوتَ اقـتراب أي شـخص سـنهرع للداخـل فـورًا .. وفي الأصـل لـو رآنـا أحـدٌ لـن يعرفنـا .. أنـا بالنظـارة وليـس العدسـات اللاصقـة .. وشـعري لا يـراه أحـد .. وملابـس البيـت التـي أرتديهـا هزليـة للغايـة .. ملابـس فتـاة في الثانيـة عـشرة مـن عمرهـا .. ورديـة مطبـوع عليهـا صـور مـن أفـلام كرتـون .. سـندريلا والجميلـة والوحـش..

يومهـا بمجـرد خروجنـا كنـا نتهامـس حتـى لا نوقـظ النـوم الكامن

في الأشـياء فسـمعنا صوتـًا يـأتي مـن إحـدى الشرفـات .. أسرعنـا الخطـى نحـو العـودة وأغلقنـا بـاب البنايـة كـما كان وحاولنـا أن نصعـد الـدرج بخفـة لصـوص معتاديـن عـلى سرقـة لحظـات مـن الزمـن، ولكـن اسـتوقفنا عـلى كل درجـة مـن درجـات السـلم فتـاة تقـف وهـي تتوجـس خيفـة أن يكشـف أحـد أمـر تسـللها..

كان هنـاك فتـاة ممتلئـةً ترتـدي رداءً أسـود تحتـه قميـصٌ أبيـض غايـة في الضيـق جعـل ذراعيهـا كتلتـي شـحم ظاهرتـين .. طالمـا وددت أن أعـرف لماذا يرتـدي المحجبات هـذا الـشيء لتغطيـة لـون أجسـادهن بشـكل قبيـح .. لكـن لم أسـألها؛ لأن الموقف كان حساسًـا لنـا جميعًـا .. الفتيـات كُـنَّ مـن كل الأعـمار .. كانـت هنـاك فتـاة مذعـورة في السادسـة مـن عمرهـا تقريبًـا ترتـدي رداءً أحمـر قصـيرًا وباللـون ذاتـه حليـة في شـعرها البنـي الـذي يصـل إلى كتفهـا.. كانـت تبـكي بصـوت مكتـوم ولم أتمكـن مـن تهدئتهـا؛ لأن الموقـف أيضًـا لم يكـن يحتمـل أن يتحـدث أحدنـا فيسـتيقظ النائمـون..

صعدنـا أنـا وشـقيقتي ببـطء شـديد .. وهنـاك مـن كانـت تعـدو صعـودًا .. وأخريـات بـكل السرعـات يصعـدن .. ومنهـن مـن تقـف مكانهـا بـلا حـراك تسـتمع إلى حفيـف الأقـدام .. كان الجميـع كالسـكارى.. وكأنهـن لا يـرون بعضهـن ويعتقـدن أن المـكان خـالٍ.. لا أعلـم إن كـن هـن السـابقات أم أنـا التـي سـوف أتحـول إلى نسـخة منهـن مـع الأيـام .. كل مـا كنـت أعرفـه هـو أننـي كنـت أحـب تلـك الكذبـة حتـى الإدمـان وأننـي لم أكـن أنـوي التوقـف عنهـا مطلقًـا..

الرائعتان

يومها قمت من فراشي أرتجف.. وصوت أمي يأتيني من الصالون يناديني.. ارتديت السترة الصوفية الوردية ذات التطريز السماوي.. ورحت أتمتم بكلمات تذمر عن قدومنا للإسكندرية في إجازة يناير بينما أصدقائي ذهبوا إلى أسوان أو إلى شرم الشيخ.. سمعتني جدتي نونا فوبختني وسبتني بألفاظ عدة.. احمرَّ وجهي غضبًا وارتفعت حرارة جسدي وقد استيقظت بالكامل واختفت آثار النوم من وجهي كلية.. لكن لم أرد.. فسحبتني أمي من ذراعي وأجلستني على السفرة وهي توبخني؛ لأنني لم أتسحر بعد، فأذان الفجر سيبدأ بعد نصف ساعة فقط.. فأكلت في صمت وغيظ وأنا أتمنى ألا أسمع صوتها ثانية.. كانت تشتمني بالإيطالية التي كنت أفهمها بطلاقة.. ولا أتحدث بها مطلقًا.. وكنت أعلم أن أمي لا تفهم شيئًا لكن تدرك المعنى من تعبيرات وجه جدتي نونا التي قالت لها إنني صغيرة وليس من المفترض أن أصوم.. الحوار اليومي ذاته بلا زيادة أو نقصان.. في الأغلب كانت أمي تبتسم بلا رد.. وأحيانًا كانت توافقها على ذلك وتقول لها إنني لو جعت سآكل وأن الأمر مجرد تدريب اختياري لي..

كانت جدتي تعشق رمضان في الإسكندرية.. لم أكن أدري لماذا..

حتـى حـين كانـت تقـول إنـه يذكرهـا باحتفـالات رأس السـنة في شـبابها لم أكـن أجـد ذلـك التشـابه.. مـا علاقـة زينـة رمضـان وصـلاة التراويـح الليليـة باحتفـالات أعيـاد الميـلاد في أوروبـا.. ومـا وجـه الشـبه بـين الفوانيـس العملاقـة في كل عـمارة بشـجرة الأرز.. كل ذلـك كنـت أندهـش منـه.. لكـن أن تشـبِّه جـدتي أذان المغـرب بأجـراس الكنائـس فهـذا يعـد مـن غرائبهـا المتعـددة.. التـي مـن المفـترض أن نصمـت أمامهـا مبتسـمين كـما علمنـا أبي حتـى لا تغضـب نونـا سريعـة الغضـب..

كنـت أراهـا تقـف في الـتراس بـلا حـراك لسـاعات.. وسـألتها أكـثر مـن مـرة كيـف لا تؤلمهـا قدماهـا؟ فكانـت لا تـرد وتتظاهـر بعـدم رؤيتـي مـن الأصـل وعيناهـا معلقـة بالبحـر.. وفي مـرة قصَّـت عـليَّ أنهـا هـي عـروس البحـر.. وأنهـم أخرجوهـا منـه؛ لـذا سـأجدها غـدًا ميتـة.. يومهـا لم أسـتطع أن أنـام مـن الرعـب.. ورحـت أتقلـب في الفـراش محدثـة خيرـرًا تكرهـه نونـا حتـى تسـتيقظ ولا تمـوت.. وحـين سـبتني لأكـف عـن هـذا اطـمأن قلبـي.. وفي الصبـاح وجدتهـا في الـتراس تراقـب أسراب الغربـان فـوق البحـر الهائـج.. كان الهـواء شـديدًا.. ولاحظـت أنهـا تخفـي كأس مثلجـات بالليمـون وتـأكل منه كل برهـة.. فجريـت نحوهـا أصرخ فرحـة أننـي قـد أمسـكت بهـا متلبسـة تفطـر في رمضـان.. وجريـت أخـبر كل مـن في المنـزل بالقصة حتـى جـاء أبي ونظـر لي نظـرة غاضبـة وأمـرني أن أكـفَّ فـورًا وإلا حبسـني في غرفتـي.. وحـين نظـرت إلى نونـا وجـدت عـلى وجههـا لأول مـرة تعبـير الخجـل.. فخجلـت مـن فعلتـي التـي خمنـت أنهـا فعلـة شـنعاء.. رغـم أننـي كنـت قـد علمـت أن نونـا مسـيحية حـين التـفَّ حـولي زميـلاتي في المدرسـة يسـألنني عـن الصليـب المعلـق في

رقبتهـا ويضحكـون عـلى شـعرها الأحمـر.. يومهـا لم أفكـر في الأمـر وجريـت باكيـة أحتمـي بسـيارة أبي التـي كانـت نونـا بصحبتـه فيهـا بالصدفـة.. وكنـت أعلـم أيضًـا أنهـا كانـت تحـرص عـلى ألا تـأكل أمامنـا في نهـار رمضـان لكـن لم أكـن قـد فهمـت الفـرق بـين كونهـا تشـاركنا وبـين أن تكـون غـير صائمـة مـن الأسـاس..

أكـثر مـا كان يزعجنـي هـو مفاجآتهـا الليليـة لي بـأن أنـزل معهـا الآن فـورًا لنتمـشى عـلى الشـاطئ.. في البدايـة كنـت أتوسـل إليهـا بـأن تنتظـر الصبـاح؛ لأن الجـو بـارد بشـكل لا يحتمـل.. فكانـت تُلبسـني السـترة الورديـة فأبـكي لأنهـا للبيـت فقـط.. ولكـن كالعـادة كنـت أرضـخ في النهايـة وأجـد نفـسي عـلى الشـاطئ ووجنتـاي تـكادان أن تتجمـدا.. فأشـعر بنشـوة عجيبـة والشـارع يخلـو مـن البـشر والبحـر غاضـب وليـس أمامـه مـن يبـث في قلبـه الرعـب سـوانا أنـا ونونـا.. عندمـا كنـت أصـف لهـا تخيـلاتي تلـك كانـت تسـخر منـي.. وتقـول لي الجـو هنـا سـاخن جـدًّا مقارنـة بجنـوا.. جنـوا الرائعـة.. جنـوا الفاتنـة.. جنـوا العريقـة السـاحرة.. لم تكـن تنطـق اسـم جنـوا إلا ملتصقًـا بوصـف مـن تلـك الأوصـاف..

وحـين كـبرت قليـلًا أدركـت أن حبهـا للإسـكندرية نابـع أصلًا مـن حنينهـا لجنـوا.. أي إنـه حـبٌّ مشـكوك في أمـره ومشـبوه.. فانزعجت كثـيرًا.. وشـعرت بالغـيرة.. وقلـت لهـا إن جنـوا تلـك مدينـة الأشـباح غـير موجـودة أصـلًا.. وأننـي قـد بحثـت عنهـا في الخريطـة فلـم أجدهـا.. وإن الإسـكندرية هـي الرائعـة.. وبالطبـع كان يومًـا أسـودًا في طفولتـي التـي أعتبرهـا سـعيدة..

أسـعد أيامنـا هـي حـين تزورنـا ذات الشـعر الذهبـي.. عمتـي

ماريـا.. كان كل أصدقـائي في المعـادي يتجمعـوا عندنـا في الفيـلا.. فقـط ليسـمعونها وهـي تتكلـم.. فهـي وياللمعجـزة تتكلـم العربيـة مثلنـا.. رغـم كونهـا ذهبيـة الشـعر زرقـاء العينـين.. لم تكن تشـبه أبي مطلقًـا.. وكنـت أشـعر أن نونـا تحبهـا أكـثر منـا لكـن كنـت ألتمـس لهـا العـذر.. كيـف لا وهــي شـقراء طويلـة ضاحكـة تجلـب لنـا الشـيكولاته العجيبـة مـن أمريـكا؟ كانـت نونـا تجلـس معهـا عـلى فـراشي تتسـامران وتضحـكان.. كنـت ألمـح سـاعتها الشـبه الكبـير بينهـما.. وأصـدق أن نونـا كانـت جميلـة في أيـام عزهـا.. وكنـت أصـاب بالحـزن لأننـي لسـت ملونـة مثلهـما.. قمحيـة البـشرة كأمـي سـوداء الشـعر كأبي.. باختصـار كألـوان كل المصريـين.. بـل وحـين أخـبر أحـدًا أن جـدتي إيطاليـة لا يصدقنـي ألبتـة.. فأسبه بالإيطاليـة وأعـدو متصـورة أن الجميـع سـيفهمُ مـا قلتُـه..

مـرة سـألتني أنـت إن كانـت عمتـي ماريـا مسـلمة أم لا؟.. أتذكـر كيـف انزعجـت يومهـا؟ كنـت قـد أصبحـت أشـبه أبي في كرهـي للأسـئلة الفضوليـة.. رغـم ذلـك سـألت نونـا وقالـت لي إن ماريـا مسـلمة؛ لأنهـا مثـل جـدي وأبي.. وأنهـم قـد اتفقـوا عـلى تسـميتها ماريـا عـلى اسـم مريـم العـذراء.. وفي نفـس الوقـت عـلى اسـم ماريـا القبطيـة زوجـة الرسـول محمـد.. لتجمـع في قلبهـا حـب كل البـشر.. حـين نقلـت لـك حديـث نونـا اقترحـت أن نسـمي ابنتنـا الأولى ماريـا.. لكننـي رفضـت خوفًـا مـن أن لا توافـق نونـا التـي لا تحـب تكـرار الأسـماء في العائلـة..

تغـير كل شـئ حـين رحلـت ذات الشـعر الذهبـي.. لـون الحيـاة نفسـه أصبـح باهتًـا.. نونـا لم تعـد تـصر عـلى شيء.. ولا حتـى عـلى

الذهـاب إلى الإسـكندرية في ينايـر.. حتـى المثلجـات لم تعـد تشـعرها بتلـك الفرحـة الطفوليـة القديمـة.. كثـيرًا مـا كانـت تناديـنـي بماريـا.. وأصبحـتْ تحـب أن تتحـدث معـي بشـكل أكـبر.. كانـت فقـط تتحـدث عـن جنـوا وعـن حبيبهـا القديـم.. كنـت أخفـي غـيرتي؛ لأنهـا لا تتحـدث عـن جـدي مطلقًـا.. وكنـت أسـمع منهـا القصـص مكـررة في نفـس المجلـس بصـبر..

وأعلـم أنهـا قـد يأسـت مـن الذهـاب إلى هنـاك.. حيـث الجـمال والفــن.. فأسرتنــا تعتــبر متوســطة الحــال.. رغــم أننــا نســكن في فيـلا كبـيرة.. إلا أنهـا بنظـام الإيجـار القديـم.. لا نملـك مدخـرات تمكننـا مـن السـفر إلى الخـارج.. الأسـعار غايـة في الغلـو.. ولم يعـد المصريـون يتمكنـون مـن التنقـل والتنـزه في أوروبـا كالسـابق.. ولـولا وجـود نونـا في حيـاتي لمـا كنـت قـد رأيـت أجانـب مطلقًـا.. وكثـيرًا مـا كنـت أشـعر أننـا معزولـون بحكـم ظروفنـا الماليـة.. مقهـورون بحكـم كوننـا أقـل تقدمًـا.. وحـين كنـت أحـاول شرح ذلـك لنونـا لم تكـن تفهمنـي.. أو بالأحـرى كان يغضبهـا ذلـك وتـردد أن المصريـين متحـضرون ويفهمـون في الجـمال..

كان الـكل قـد فطـن إلى أننـي نسـخة مـن عمتـي ماريـا.. نفـس القـوام وطـول الشـعر والعيـون الصغـيرة المسـحوبة.. الفـرق كلـه في الألـوان.. فكنـت أقـول لأمـي إن نونـا تحبنـي حبًّـا غـير صـافٍ.. مثـل حبهـا للإسـكندرية بالضبـط.. بينـما كان كل تفكـير أمـي ينصـب في أنهـا تتشـاءم حـين تناديـنـي نونـا بماريـا.. وكان أبي يسـكتها بنظـرة يُرجـى منهـا ألا تعلـق عـلى كلـمات نونـا..

اندهشـت حـين قالـت لي إنهـا تـود أن تـزور مجمـع الأديـان في

مـصر القديمـة.. رحبـت بالفكـرة وقـررت أن أصطحبهـا معـي أنـا وزمـلاء الجامعـة.. فقـد كانـت تكـره جلسـات الكبـار في العائلـة وتحـب أن تجلـس مـع أصدقـائي أكـثر.. كنـت أشـعر في عينيهـا أنهـا لا تكـبر.. وأننـي أكـبر منهـا في العمـر؛ لـذا عـليَّ أن أجاريهـا وألَّا أسـفِّه كلامهـا أبـدًا.. وحـين ذهبنـا إلى الكنيسـة المعلقـة راحـت تصـلي وتبـكي.. كانـت تلـك أول مـرة تذهـب فيهـا إلى أي كنيسـة في مـصر.. واندهشـت أنهـا لم تـصر عـلى الذهـاب إلى كنيسـة كاثوليكية وصلَّـت في كنيسـة قبطيـة أرثوذكسـية.. وفي الطريـق راحـت تحـكي لنـا عـن أيامهـا في كاتدرائيـة سـانت لورانـس.. فهمـت مـن حديثهـا أنهـا فقـط تحـب كل قديـم؛ لـذا أحبـت مسـجد السـلطان حسـن بنفـس درجـة حبهـا للكنيسـة المعلقـة..

كان أبي يشـعر بالقلـق مـن كـون نونـا لم تعـد تتحـدث إلا عـن المـاضي وعـن شـاطئ جنـوا، وعـن قصـة حبهـا التـي اشـتعلت معهـا الحـرب العالميـة الثانيـة.. كانـت قـد بـدأت تنـسى تقريبًـا كل أيامهـا في مـصر.. وبـدأت لا تتذكـر الأسـماء.. وتكـثر مـن الحديـث بالإيطاليـة.. قـال الأطبـاء إن زيـارة قصـيرة لجنـوا قـد تفيـد في إنعاشـها.. فقـرر أبي أن يجمـع كل مدخراتنـا وأن يضحـي بالسـيارة الصغـيرة في سـبيل رحلـة بحريـة وأن نمـضي أسـبوعًا في الإسـكندرية ثـم نتبعـه بأسـبوعٍ في جنـوا.. حـين سـمعتْ هـي بذلـك عـادت ضحكتهـا تشـبه ضحكـة عمتـي ماريـا نفسـها قبـل رحيلهـا.. وراحت تحـضر حقيبتهـا وتعدنـا بنزهـة العمـر في جنـوا.. تحمسـت أنـا وأمـي بشـكل هائـل.. وأخـيرًا سـنرى سـاحة دي فـيراري في ينايـر..

الإسـكندرية كانـت كالعـروس في اسـتقبالنا.. ونونـا كانـت قـد

تزينـت واشـترت ملابـس جديـدة.. ووضعـت لأول مـرة منـذ زمـن عطـر البحـر كـما كنـتُ أسـميه في طفولتـي.. كان عطـرا منعشًـا مُعتَّقًـا برائحـة الليمـون والمسـك الأبيـض.. وكان لونـه سـماوي تمامًـا مثـل لـون الأمـواج والسـماء.. وأعجبتهـا التسـمية وأصبحـت تطلـق عليـه أيضًـا عطـر البحـر؛ لأنـه يذكرهـا بحبيبهـا الـذي أهـداه إليهـا غـير عابـئ بقنابـل الإنجليـز..

قامـت الثـورة المصريـة ونحـن في الإسـكندرية.. وامتـلأ شـارع الكورنيـش بالدمـاء.. وتحـول نظـر نونـا مـن البحـر إلى الشـباب الذيـن يهتفـون ويسـتقبلون الرصـاص بصدورهـم.. وراحـت تهتـف بالعربيـة مـن الـتراس بالحريـة لمـصر.. سـألتها باسـمة إن كانـت تحـب مـصر.. سـبتني وهـي تقـول: كيف لا أحـب وطنـي؟.. أخفيت ضحكتـي وأنـا أعلـم أن ذاكرتهـا لم تعـد كالسـابق.. وفي المسـاء حـين سـمعت أصـوات الرصـاص راحـت تـصرخ بـأن الإنجليـز سـيدمرون جنـوا الجميلـة.. جنـوا الرائعـة.. حاولنـا إنعـاش ذاكرتهـا بأننـا في الإسـكندرية.. فراحـت تـصرخ بـأن الإسـكندرية الرائعـة سـتتدمر.. وراحـت تنـادي فليسـقط أعـداء الجـمال.. مدمـرو التاريـخ.. كارهـو الحضـارة.. راح أبي يهـدئ مـن روعهـا ويخبرهـا أن الجـمال لا يمكـن أن يُدَّمـر.. فهـدأت قليـلًا ونامـت..

وفي الصبـاح اتشـحنا بالسـواد وعدنـا للقاهـرة حـزانى.. كانـت نونـا معنـا في صندوقهـا المنقـوش الملـون كـما أوصـت..

بعدهـا بأيـام كانـت كل كلماتهـا تتتابـع أمامـي كمـوج بحـر هـادر.. وغمرتنـي فرحـة طفوليـة حـين أدركـت أن حبيبهـا القديـم مـا هـو إلا جـدي.. وأنهـا كانـت تحـب الإسـكندرية فعـلًا.. وعندمـا

علمت أنها قد تركت لي زجاجتين من عطر البحر تأكدت أنها كانت تحبني صدقًا..

هل علمت الآن لماذا اخترت أن يكون شهر العسل الخاص بنا رحلة بحرية تبدأ من الإسكندرية إلى جنوا بالذات؟. لأنني يا عزيزي أراها كل يوم تتطلع إلى ما بعد البحر وترجوني أن أزورها في جنوا.. لا لم أجن بعد فلا تبتسم تلك البسمة الهازئة.. نونا في جنوا الآن وعمتي ماريا معها ينتظارننا ليشاهدانا نقضي هناك رحلة العمر ونحصر أوجه الشبه بين جنوا والإسكندرية.. حتى لو لم تصدق يا عزيزي فأنا أعذرك.. فأنت مشغول دائمًا لم تفتح قلبك لبلدان العالم التي تشبه بلدنا، ولم تر بداخلك ذلك الجزء المنير الذي يحتوي على ذاكرة الأجداد والتاريخ.. حتى لو لم تدرك شيئًا عنه فهو موجود.. وستصدقني حين نبدأ رحلتنا..

فلوت وغرباء

تراهـا تقـترب منهـا مبتسـمةً.. راحـت تـردد لنفسـها «متـى رأيتهـا.. متـى رأيتهـا».. لعلهـا تتذكـر سريعًـا.. كانـت تـدرك أنهـا كانـت تعرفهـا في يـومٍ مـا.. ذلـك الوجـه.. تلـك النغـزة.. العـين الغائـرة قليـلًا.. ولكـن مـاذا حـدث لتلـك الذاكـرة الناكـرة التـي أبـت أن تمدهـا بمعلومـاتٍ كافيـةٍ تخفـف مـن سخف هـذا الموقـف المحـرج! المشـكلة أنهـا كانـت قادمـةً وهـي تبتسـم ابتسـامة عريضـة مرحبـةً بشـكلٍ مزعـج.. ثـم مـدت يدهـا مناديـة باسـمها وكأنهـا عـثرت عـلى كنـز.. لم تسـتطع إلا أن تصنعـت الفرحـة قائلـة:

- كيف حالكِ..؟

وداخلها تقول:

- من أنتِ؟

ردت الغريبـة التـي كانـت يومًـا قريبـة.. وكأنهـا كانـت تنتظـر أن تفتـح فمهـا لـكي لا تغلقـه ثانيـة:

- أنـا بخـير.. تزوجـت وأنجبـت طفـلًا.. اسـمه فريـد.. الأسـماء القديمـة عـادت موضـة.. انظـري صورتـه (تُخـرج هاتفهـا المحمـول بحركـة سـنيمائية).. قبـل أن أَلِـدْهُ كنـتُ أعمـل في شركـةِ مقـاولات..

هـل هـي مهندسـة؟ لـو سـألت لبـدا عليهـا أنهـا لا تعرفهـا.. فليسـتمر التصنـع.. الغريـب أنـه ممتـع قليـلًا..

- كنـت أعمـل في الإدارة الماليـة بالطبـع.. (تضحـك بشـكلٍ لافـت للنظـر ومنفـر) تعلمـين تلـك الـشركات مليئـة بالمهندسـين؛ لـذا كان مـن الرائـع أن أعمـل بهـا وأتعـرف عـلى كريـم (تغمـز بعينهـا بدلالٍ متكلـف).. كريـم زوجـي انتظـري إنـه هنـا أيضًـا سـأعرِّفُكِ عليـه..

ممتـاز.. سـتعرِّفها عليـه قائلـةً بالتأكيد«منـال، هـذا زوجـي المهنـدس كريـم.. كريـم، تلـك منـال صديقتـي مـن أيـام ال...»، وتقـول أيـن تعرفـت عليهـا.. أمعقـول ألا تتذكـر نهائيًّـا! إنهـا تتعامل معهـا وكأنهـما كانتـا صديقتـين حميمتـين.. هـل تغـيرت ملامحهـا مثـلًا؟ يجـوز! حـين تُنَحِّـف المـرأة حواجبهـا أو تختـار لهـا رسـمةً جديـدةً تمامًـا تصبـح شـخصًا آخـر.. أو حـين ترتـدي الحجـاب.. أو تخلعـه.. ولكـن المشـكلة أنهـا تذكـر وجههـا كـما هـو.. أجنـت تمامًـا مثـلًا!

- هـذا هـو كريـم الـذي حدثتـك عنـه (تغمـز لهـا بعينهـا مـرة أخـرى) كريـم تلـك منـال التـي حدثتـك عنهـا..

تبًّـا! ستسـألها مـن أنـتِ يـا سـخيفة وينتهـي هـذا الموقـف الآن وفـورًا..

انبعثـت موسـيقى بآلـة الفلـوت التـي تعشـقها منـال.. جعلتهـا تفقـد التركيـز.. مـرة بحثـت عـن أي مقطـع بتلـك الآلـة.. يكـون غـير مقطـع زامفايـر لبودابـار.. أو موسـيقى أغنيـة عـود لأحمـد الحجـار.. لم تجـد.. والآن تسـمعها في ذلـك الحفـل الـذي كان صاخبًـا

منذ دقائق.. تأخذ قلبها بعيدًا.. تبدو من الشرق الأقصى، ولكن كيف ستعرف اسم المقطوعة لتعاود سماعها؟ أصبح هذا كل ما يهمها في تلك اللحظة وسيطر عليها بالكامل.. فجأة قالت:

- أنا آسفة.. من أنتِ؟ أقصد من أين تعرفينني؟.. (ضحكة مفتعلة تكاد تكون شريرة) تعرفين ألزهايمر..

بدا على الغريبة إحباط بسيط.. وكان كريم قد انسلَّ ليتحدث مع آخرين.. أو أخريات.. انسلَّ من يديْ زوجته كالماءِ والصابون.. فقالت لها:

- أنا هاجر يا منال..

- آه (آه ممدودة) هاجر من؟ سامحيني الذاكرة لم تعد كالسابق؟

- هاجر.. كنت معكِ في الجامعة.. معقول! كنا في مجموعة واحدة!

- كان معي ٥ هاجر.. هاجر محمد.. هاجر إسماعيل.. هاجر بركات.. هاجر..

- أنا هاجر بركات! تذكرين كل تلك الأسماء ونسيتِ ملامحي!

- غريبة! أذكر اسمكِ.. وأذكر وجهكِ.. ولا أستطيع أن أضعهما معًا..

- (بدا عليها غضب خفيف أخفته ببراعة بملامح لا يظهر منها إلا مساحيق التجميل) أنتِ الغريبة! قالوا عنكِ أنكِ قد أصبتِ

بالجنـون ولم أصدقهـم! أتعتقديـن أنـكِ شـهيرة فتتصنعـين أنـكِ لا تعرفيننـي!

- لا بالطبع لا! أنا لست شهيرة! هل أنا شهيرة؟

- (متظاهـرة بالسـماحة والحـب والفرحـة) وتتظاهريـن بالتواضـع الآن! (ثـم ضحكـة رقيعـة جديـدة مـن التـي تلفـت الأنظـار).

التفتـت ببصرهـا بجميـعِ الاتجاهـات لتبحـث عـن مصـدر الموسـيقى.. لابـد أن تعـرف اسـم المقطوعـة قبـل أن تنتهـي ولا تجـد وصفًـا لهـا تسـأل بـه عنهـا.. تركـت هاجـر بـركات.. راحـت تتجـول مسرعـة الخطـى بـين النـاس.. الفلـوت.. تحبـه بشـكل لا تـدرك سـببه.. والآن ينتهـي وسـتفلت منهـا المقطوعـة.. لتـأتي مقطوعـة أخـرى صاحبـة تكرههـا.. تقـول القاعـدة أنـه لا يتصـادف أن تـأتي مقطوعتـان تحبهـما متتاليتـين..

أدركـت أنهـا تـدور في دوائـر.. حـول النـاس.. حـول نفسـها.. تبحـث عـن المسئول عـن الموسـيقى.. لا تجـده.. اللحـن يخـرج مـن سـماعاتٍ تبـدو مثبتـةً بالعـدم.. رأت العديـد مـن الوجـوه.. لم تعـرف أيًّـا منهـا.. حتـى هاجـر اختفـت.. إنـه حفـل.. مـا الـذي جـاء بهـا إلى هـذا الحفـل! تكـره الحفـلات فلابـد أنـه حـدثٌ جلـل الـذي جعلهـا تـأتي.. خافـت.. أن تقابـل أحـدًا كانـت تعرفـه.. فتتذكر ملامحـه.. وتنـسى مـرة أخـرى مـن كان هـو.. أجُنـت كـما تقـول تلك الغريبـة؟ هاجـر بـركات.. اسـم سـمعته.. مـن مئـات الأسـماء..

تقـول إنهـم يقولـون.. مـن هـم الذيـن يقولـون؟ ألا يكفـوا عـن الـكلام! بالتأكيـد هـؤلاء لديهـم أسـماء.. كتلـك التـي توجـد

في قائمـة أصدقائهـا عـلى فيسـبوك.. أو أرقـام هواتـف مسـجلة في هاتفهـا المحمـول.. هاجـر (جامعـة).. أحمـد (صحفـي).. أ. عـلا (زميلـة أمـي).. أم رحمـة (زوجـة الحـارس).. لـكل فـرد تعريـف.. لـكي لا تنـسى.. ورغـم ذلـك تنـسى.. وعـلى فيسـبوك لا توجـد تلـك الخاصيـة.. تظهـر لهـا منشـورات ينشرهـا أشـخاص ليراهـا غيرهـم.. هاجـر بـركات تنـشر صـورة تتحـدث عـن الخيانـة.. مـن هـي هاجـر بـركات؟ تدخـل صفحتهـا فـلا تجـد أي صـورة ولكـن خانـة الجامعـة هـي كليتهـا نفسـها.. مـن الـذي خانهـا؟ بالتأكيـد ترسـل هاجـر ذلـك المنشـور إلى العـشرات كي يـراه شـخص واحـد.. فقـط.. لتخـبره بمشـاعرها دون مواجهـة.. أو كنـوع مـن أنـواع لفـت النظـر.. تمامًـا كضحكتهـا.. في المـاضي.. كانـت المصريـات غـير الراقيـات حـين يتشـاجرن مـع أزواجهـن يفتحـن النافـذة لـكي يسـمع الجـيران.. والآن ينـشرن المنشـورات عـلى الصفحـات التـي تتحـرك باللمـس..

قـررت أن ترحـل.. فقـد انتهـى اللحـن ولم تجـد مـن تسـأله.. كان لحنًـا شـجيًا دافئًـا حنونًـا.. لا يشـبه الوجـوه الغريبـة في الحفـلِ الغريـب.. فلتبحـث عنـه في شـبكةِ الإنترنـت.. مـاذا سـتكتب؟ تيراتراتـا فلـوت! حسـنًا.. سـتعود لتسـتمع إلى اللحنـين القديمـين حـين تشـتاق للفولـت.. لـن تجـد اللحـن الجديـد.. انتهـى الأمـر.. إلا مصادفـة.. وقتهـا سـتسرع في البحـث عنـه ولـن تضيـع وقتهـا مـرة أخـرى في محاولـة تذكـر الغربـاء..

صور من هناك

تشبهني هي.. الملامح ذاتها تقريبًا، لكن الكل أجمع على كونها أكثر مرحًا.. وأسرع تأقلمًا مع الغرباء. لا أعلم من أين أتت بكل تلك البهجة معها منذ أنجبتها، غيرت حياة الكثيرين منذ يوم مولدها فقط.. حتى وهي نائمة.. تكفي نظرة إليها لتجعلني ابتسم بلا تحفظ، حين كنا بمصر في الثلاثةِ أعوامِ الأولى لها كانوا يتغزلون في جمالِ عينيها ذات الأهداب السوداء الكثيفة.. كان ذلك يسعدني، ولكنني كنت أطلب منهم أن يكفوا عن ترديد ذلك، أكره الفتاة المغرورة التي تعلم أنها جميلة، فتتعامل مع الناس على هذا الأساس وتطلب منهم أن يعاملونها بالمثل.. ولكن كنت أكون أكثر فرحًا حين يصفون روحها بالحلوة.. ضاحكة على الدوام مع الأغراب، تلعب مع أي شيء يتحرك.. ولو لم تجده لاخترعت القصص وتحدثت مع الجمادات صانعة حياة كاملة وهالة من الخيالِ والأساطير..

مؤخرًا أصبحت كثيرة الشرود، تجلس وحدها تحدق في العدم.. مر الآن خمسة أعوام لنا في هولندا.. أنا وهي وفقط.. تجرأت وسألتها عن سبب ضياع نظرتها في اللا شيء.. تقول لا سبب.. لا أفكر في أي شيء.. ثم تسألني وعلى وجهها علامات التردد إن كان هناك حقًّا فصلٌ مدرسيٌّ كاملٌ من الأطفالِ يشبهونها في مكان

ما من هذا العالم، سألتها ما معنى يشبهونها؟ كنت قد أصررت على غرس فكرة في نفسها وهي أن الإنسانَ ليس غلافًا خارجيًّا من الألوانِ وفرق الأحجامِ ورسم الملامح.. ولكنهم أثبتوا لها ولي أنني لست وحدي في هذا الكون من تبث في عقلها الحقائق والثوابت.. قالت لي إنها رأت صورة جماعية لأصدقاء ابنة خالتها، وكلهم بلا استثناء يحملون الملامح ذاتها.. ثم ابتسمت تلك الابتسامة الكبيرة الساخرة التي أصبحت تتميز بها وهي تضحك وتقول إن هذا بدا لها كجزء من الجنة..

لا تصرح أبدًا بما يجول في خاطرها، تشبهني في هذا أيضًا، أسير معها على رصيف شارعنا الضيق المرصوف بالكامل بالحجارة، أمسك أنا هاتفي المحمول وأتابع آخر ما نشره معارفي، صورٌ من هناك.. من حيث أتيت ومن حيث أتت كل جذوري.. بينما تمسك هي بذراعيْ حقيبتها الوردية التي تضعها على ظهرها.. منشغلة بالنظرِ نحو الأرض.. للحظات تأملتها.. كنت منذ أيام مثلها أذهب للمدرسة، أيام! هي في الحقيقة أكثر من عشرين عامًا..

مدرستي التي كانت في إحدى شوارع حي المعادي في القاهرة، أيضًا كنت أذهب سيرًا على الأقدام.. على شاطئ نهر النيل حولي أشجار عملاقة تُظلل الطريق بأكمله، وتمنع عني خطر الشمس الصباحية في أيام الصيف.. وتجعلني في بداياتِ أيام الشتاءِ أنفثُ الهواءَ الباردَ ليصنع أبخرةً تسعدني وتضحكني، يمزح معي حارس عمارتنا وكأنه سيسابقني.. فأجري في الشارع بلا تفكير.. بلا خوف ولا تدبير.. أرى شجرة البرتقال أسفل

بنايتنا تختلف عن باقي الأشجار فأشعر بالفخر.. فأبي يكره الأشجار غير المثمرة ولا يجد أي بد من زراعتها متعمدين.. وينتقد أن كل أهل القاهرة يصرون على زراعتها..

أقابل زميلاتي فأصنع لإحداهن حركة بفمي تعني لا أريد أن أكون صديقتك.. ولأخرى حركة أخرى تعني نحن صديقات.. وأتصنع أنني لا أرى تلك.. بينما أسعى لأن تتحدث معي هذه.. عالم من الطبقاتِ بين البنات بين محبوبة وعادية ومن عامة شعب الفصل ومنبوذه.. بين جميلة ومتفوقة ومسكينة وخجولة.. هذا المجتمع الصغير كان يشغل يومي بأكمله.. حين أقيِّم مَن كنت أكتشف أنني كنت شهيرة ومحبوبة جدًّا، وكنت أقرر من ستكون صديقتي ومن لا تستحق هذا الشرف.. كل ذلك رغم أنهم لم يعرفوا أبدًا من هو والدي وكان اسم شهرتي في المدرسة ثنائي فقط.. والآن أفكر فيها.. ترى أي وصف من الممكن أن يصفها به زملاء دراستها؟ وفي أي خانة يصنفونها؟

ورفعتُ عيني عن الأخبار بجهدٍ وأغلقت هاتفي بصعوبة ثم وضعته في حقيبتي.. وضعت يدي على كتفها الصغير.. سألتها هل تود أن نخرج بعد المدرسة لنتناول غداءنا بالخارج؟ ابتسمت بلا رد.. أكره صمتها رغم صمتي معظم أوقات اليوم.. وأحب أنها لا تتحدث معي أبدًا إلا بالعربية.. ليس ككثير من العربيات اللواتي قابلتهن يتحدثن مع أبنائهن بالهولندية بكلِ فخر.. هل تعتز بكاينها وجذورها مثلي؟ ربما كانت فقط مرآة لي.. متى تكونت شخصيتها الخاصة المتفردة؟ متي صارت هذا الكيان الغامض؟ سألتها هل يضايقكِ أحد في المدرسة.. قالت

ساخرة إنه لا يقدر أحد أن يضايقها.. ضحكت.. غروري ذاته! ثم أعدت السؤال.. هل ضايقكِ أحد وتمكنتِ من أن تتصرفي معه؟ قالت لي ألا أخاف.. كل شيء تحت السيطرة.. خفق قلبي.. كلمة أبيها.. كيف قالتها وهي لم تقابله منذ أن كانت في الثالثة!

مرة سألت نفسي.. كيف كرهت شهرة أبي يومًا ثم تزوجت من هو نسخة طبق الأصل منه! شخص هو مغناطيس للبشر حوله.. خطيب مفوه.. يبحث أين يقع الظلم لكي يلتصق بالمظلومين.. هكذا كنت أرى أبي.. فخورة به.. ولكن رغم ذلك طالما تمنيت حياة طبيعية في الظل.. ودومًا كنت أمازحه بأنني سأتزوج موظف يعود للبيت في الثالثة عصرًا ونشاهد معًا مسرحيات وأفلام ثم ننام في الثامنة.. كان يضحك ولم يغضبه ذلك أبدًا.. لأنني بعدها كنت أناقشه في آرائه السياسية بكل جرأة.. يشجعني.. ويحاول أن يقنعني.. وتنتهي حواراتنا ببعض نقاط التلاقي، والكثير من الاختلافات.. وبتناقل خبرات..

حين قابلت مراد قررت ألا أراه ثانية.. لا أحب الشخص الاستعراضي.. وكنت أخشى على نفسي منه.. لا أحب الأسر في نطاق رجل سيجعلني أنتهي بأنني لا أفكر إلا فيه.. مرة أخبرته ذلك فقال إنني أكثر استعراضية منه.. كنت أعلم ذلك فلم أغضب.. تلك المرحلة من محاولة الهروب والابتعاد عنه كانت الأكثر فشلًا في حياتي.. تفاصيل كثيرة أذكرها كلما نظرت في عيني ابنته.. هل ظلمتها بأنني تزوجته واخترته أبًا لها؟ ملامحها هي ملامحي أنا.. فكيف أراها الآن تتحدث بلسانه؟! كل عيوبي فيها.. بينما ضحكته الساخرة ترتسم على

شـفتيها يوميًّـا..

ومؤخـرًا أصبحـت كل الموجـودات حـولي تتآمـر عـليَّ لتذكـرني فقـط بـه.. لتجعلـه صـورة لا تفـارق خيـالي بعـد أن ظننـت أننـي قـد أنجـح في جعلهـا فقـط خلفيـة لعقـلي.. أسـمع اسـمه في كلـمات أجنبيــة بمعــانٍ مختلفــة.. وأرى أشــياء كان يحبهــا.. وأخــرى كان يسـخر منهـا.. والآن تنضـم ابنتـي للمؤامـرة وتنطـق كلماتـه وكأنهـا تسـتدعي روحـه مـن خلـف الزنزانـة التـي تركتُـه فيهـا مرغمـةً لأربي تلـك الطفلـة بسـلام..

أوصلتهــا للمدرســة التــي تمتلــئ بالشــعور الشــقراء.. اندســت وسـطهم كجـواد عـربي وسـط مجموعـة مـن الخيـول الإنجليزيـة.. متمـرد قـوي وأصيـل.. لكـن غريـب.. قـررت أن أتحـدث معهـا ونحـن نتنـاول الغـذاء.. سأسـبل أغـوار نفسـها وسـأعلم بالضبـط فيـما تفكـر.. أعـرف أن كل شيء هنـا مختلـف عـما ألفتُـه أنـا مـن مجتمـع الأطفـال.. القسـوة أكـثر؟ حقًّـا لا أدري ولكنهـم يختلفـون في التقييـم.. عندنـا مـن الممكـن أن تصـير الفتـاة محبوبـة؛ لأنهـا متفوقــة في الدراســة.. هنــا العكــس.. شــعرت أن كل معلومــاتي سـطحية.. مـن الإعـلام، وأننـي أخلـط مجتمـع المـدارس الأمريكيـة كـما نراهـا في الأفـلام بالمجتمـع هنـا، وهـي لا تخـبرني بالتفاصيـل..

لمـاذا انطفـأ في عينيهـا ذلـك الوهـجُ الـذي كان ينـير أيامـي.. هـل تشـعر بالغربـة وهـي التـي قـد أتـت لأمسـتردام وهـي في الثالثـة؟ مـن المفـترض أن تشـعر أن تلـك هـي بلادهـا الوحيـدة! كنـت أظـن ذلـك! أيشـعر الإنسـان بالغربـة في هـذا العمـر! وتتسـلل إلى نفسـه مـرارة الشـعور بالاختـلاف فقـط لأن جـذوره مختلفـة حتـى لـو

أتقـن اللغـة والعـادات وأصبـح مندمجًـا؟ أيكـون مهـما طـال عمـرُه مندمجًـا بجسـده وتظـل روحـه بعيـدة تحلـق في مـكان مـا لا يـدري عنـه شـيئًا؟

مـرة قـررت أن أجعلهـا تندمـج مـع أطفـال عـرب لعلهـا تصبـح أكـثر تلقائيـة.. كنـت دومًـا متخوفـة مـن تلك اللحظـة.. التـي يعرف فيهـا أحـد هنـا مـن نكـون.. أن تكـوني زوجـة لمعتقـلٍ محكـومٍ عليـه بسـنواتٍ عـدة خلـف الأسـوار وابنـة لمعتقـلٍ تـوفي خلـف الزنزانـة ذاتهـا أمـر مزعـج لمعظـم النـاس.. ولا أحـب إزعـاج مـن حـولي بتصـور أنـه يسـدي لي خدمـة بـأن يعرفنـي.. أفضـل المـوت وحيـدة.. وقتهـا كـدت أنـدم ولكـن اختلـف السـبب.. لا أعلـم هـل زادهـا هـذا غربـة.. فقـد أخبرهـا الأطفـال عـن رحلاتهـم إلى مـصر وسـوريا والعـراق.. والمغاربـة تحدثـوا معهـا بلغـات لم تفهمهـا فـزادت تقوقعًـا.. لكنـات أخـرى مختلطـة بالهولنديـة.. والمصريـون بـدوا لهـا أصغـر منهـا عمـرًا حتـى مـن يكبرنهـا بأعـوام.. كانـوا مـن الطبقـات التـي لا تتحـدث إلا عـن الحفـلات والملابـس الغاليـة.. وكانـت مثـلي.. لا تتحـدث إلا عـن آخـر كتـاب قرأتـه أو آخـر فيلـم وثائقـي أبهرهـا..

لكـن خطـوة شراء كلـب كانـت موفقـةً للغايـة.. أحبتـه بشـكل مفـرط.. وكانـت تتحـدث معـه وكأنـه سـيمثل معهـا في مسرحياتهـا الوهميـة.. كان يضحكنـي حـين يتجـاوب معهـا ويهـز ذيلـه جـذلًا.. كنـت أشـعر أنهـا تشـبهه.. أو كانـت تشـبهه في طفولتهـا الأولى.. المـرح ذاتـه والـبراءة المنقطعـة النظـير.. لم تنتظـر أي سـوء مـن أي أحـد.. تصـدق كل مـا يقـال لهـا عـلى الـدوام.. تفـرح بأقـل القليـل..

وتعـبر عــن فرحتهـا بــكل الوســائل، لا تبخــل بمشــاعرها.. حــين تحــزن.. فقــط تبــكي.. لا تخفــي ولا تخــاف الشــماتة أو أن تبــدو عاجــزة..

متــى تحولــت؟ وحــين وصلــت للثامنــة أصبحــت وكأنهــا قــد نضجــت وانتهــى كل مــا كانــت قــد ولــدت بــه! حاولــت أن أدرك متــى ارتســمت عــلى ملامحهــا الخــبرة والمعرفــة! قاســية هــي ملامــح عــرك الحيــاة حــين تكــون عــلى وجــه الأطفــال.. حــين تتغــير نظرتهــم البلهــاء إلى الأبــدِ إلى نظــرة علــم بأقــسى الأمــور.. خاصــة لــو كان لا ينقصهــا أي شيء مــادي.. معانتهــا نفســية معقــدة.. وأنــا التــي قــرأت في كل المجــالات أقــف عاجــزةً عــن وضــع يــدي عــلى الجــرح لأضمــده.. أو حتــى أبــدي التعاطــف معــه.. وقــرأت هــذا الوصــف في روايــة للكاتــب المــصري أحمــد خالــد توفيــق ولكــن كان يصــف معانــاة طفــل بولنــدي تهــدَّم بيتُــه في الحــرب العالميــة الثانيــة، ولكــن كان هــذا أكــثر تبريــرًا بالمفهــوم العقــلاني..

مــرة قالــت لي إن الإنســان يولــد وهــو يرفــض أن يكــون مطيعًــا.. فهمــت أنهــا تقصــد أنــه يولــد بــإرادة حــرة.. وأضافــت أن باقــي مــن حولــه يحولونــه للطاعــة.. فأدركــت أنهــا تتحــدث عــن كــون مــن حــول الإنســان يتكاثفــون ليقتلــوا إرادتــه الحــرة.. فقــد قالــت بعــد ذلــك إن الدليــل أنــه يرفــض أطعمــة بعينهــا ولكــن الآخريــن يجبرونــه عليهــا.. وعــلى النــوم في وقــت محــدد.. وبعــد ذلــك عــلى عمــل الفــروض المدرســية.. ثــم بعــد ذلــك لا يرفــض ويتــم ترويضــه، رغــم أننــي قــد ســعدت بقدرتهــا الفائقــة عــلى التعبــير إلا أننــي قــد خفــت عليهــا..

يـا ويـلي منـكِ حـين تكبريـن وتكـبر معـكِ جينـات النضـال الوراثيـة في عائلـة أبـوكِ وأمـكِ.. سـأرى أيامًـا بلـون شـعركِ الفاحـم.. لم أحجمهـا أبـدًا رغـم رغبتـي الشـديدة في أن أصنـع منهـا قطـة وديعـة تخـاف مـن أي حركـة غـير متوقعـة.. مـن خـاف سـلم.. إلا أننـي بـلا وعـي كنـت أصنـع منهـا نسـخة أخـرى مـن كارهـي الظلـم.. ذلـك الكـره الـذي يجعلهـم فـورًا الأكـثر تعرضًـا للظلـم.. فهـل أنـا أصنعهـا فعـلًا؟ أم أنهـا الآن تصنـع نفسـها بمعطيـات جديـدة تمامًـا...

بعـد انتهـائي مـن عمـلي الروتينـي الهـادئ الـذي لا يشـبهني بالمرة خرجـت شـاردةً وأنـا أحكـم غلـق السـترة المنتفخـة عـلى جسـدي، الـذي يرفـض أن يحصـل عـلى تدفئـة كافيـة وتبـدو الـبرودة خارجـة مـن أوصالـه.. توجهـت نحـو مدرسـتها فوجدتهـا تقـف هادئـة كـما تركتهـا بالضبـط.. كنـت أنـا في مثـل عمرهـا أعـود مـن المدرسـة مبعـثرة الشـعرِ بعـد يـوم مـن القفـزِ في كل مـكان.. بينـما كانـت هـي تحتفـظ بمظهرهـا بشـكل يذهلنـي.. لا أعلـم لمـاذا كان هـذا يجعلنـي أعاملهـا وكأنهـا شـخص ناضـج نـدٌ لِي..

لم أكـن أدللهـا كـما كانـت تفعـل أمـي.. كانـت تعـد لنـا كل شيء.. الطعـام والملابـس وتسـتذكر معنـا دروسـنا.. تنظـف كل شيء يخصنـا وتمرضنـا وتسـمع قصصنـا.. وطالمـا تسـاءلت مـا الـذي يجعـل سـيدة في مقتبـل العمـر تخـدم فتـاة تعـدت العشريـن؟.. أعـود مـن الجامعـة فأجـد كل شيء معـد لاسـتقبالي.. مـن أنـا أصـلًا حتـى أسـتحق تلـك المكانـة! وحتـى بعـد تخرجـي مـن الجامعـة تسـاءلت كيـف لرجـل تعـدى الخمسـين أن يوفـر لامـرأةٍ تخطـت الخامسـة

والعشرين حياة مادية كاملة وكل ذلك لأنها ابنته! كنت أشعر ببعضِ الذنب.. ولم أجد مطلقًا إجابة على هذه الأسئلة سوى ألا أربي ابنتي أبدًا على أنني مسئولة عنها.. هي مسئولة عن نفسها..

ثم جاءت سفرتنا لهولندا لتجعل قراري هذا أسهل كثيرًا.. ولكنني لا أدري لماذا الآن أشعر بأنه قد باعد بيني وبينها، وجعل منها شخصًا مستقلًا بشكل أصبح يستفزني.. ولا أعرف لماذا أشعر أحيانًا بأنني فقط أتمنى لو كنت من طراز الأمهات المصريات النمطيات اللواتي يبكين لأن أبناءهن لا يشربون اللبن أو يهرولن خلفهم طوال اليوم بعصير البرتقال وملعقة العسل الأبيض اليومية..

بمجرد دخولنا مطعم الوجبات السريعة طلبت هي ما تريد وكانت سعيدة.. لا يوجد ما يسعدني بقدر ابتسامتها.. بدأت بأن قصصت عليها بعض القصص عن أبي وأمي.. وعن أبيها.. كنت أحرص ألا أقص عليها أبدًا أي ذكريات مؤلمة.. ربما كان هذا خطأً مني.. ولكنني كنت أرفض أن أنقل لها مشاعري السلبية في هذا العمر.. قصصت عليها حكايات من مدرستي وذهابي للنادي وبطولات السباحة على مستوى مصر التي كنت أحصل عليها.. كانت تسمع باهتمام وتتفاعل مع القصص بشكلٍ زائد..

حين جاء الطعام عادت للشرود.. لها نظرة تشبه نظرة مراد حين يكون في مأزق، تؤلمني تلك النظرة تمامًا كما كانت تؤلمني حين كنت أراها في عينيه.. يزعجني شعور أنه أمامي شخص يتألم ولا يستطيع أن يعبر عن ذلك، كما لا أستطيع أنا أن

أساعده بشيء.. خاصة لو كان هذا الشخص قريبًا مني.. قلت لها ماذا بكِ؟ فأجابت بأنها لم تعد ترغب في زيارة مصر كما كانت ترغب في السابق ولم تعد تنتظر هذا اليوم!

شعرت بوخزةٍ في قلبي.. تحملت وصبرت لأعرف فيما تفكر بالضبط.. قالت لي إن السبب هو أن صورتها عن بلادها الأصلية تفوق الخيال.. وأنها قد سمعت وشاهدت وعرفت أن صورتها وهمية.. وضحكت وهي تقول لا جنة في الواقع.. لذا هي لا تريد أن تذهب إلى هناك وتصاب بصدمة..

رغم أن كلماتها كانت تعني أنني بالفعل قد أخطأت في حقها حين أخبرتها عن الجوانب الإيجابية فقط إلا أنها أدخلت بعض السرور إلى قلبي رغم كل شيء.. على الأقل هي تحب مصر.. عدت للقصص.. سردت عليها بعض أحداث الجامعة.. الشباب والرغبة في التغيير.. كيف قابلت أباها وكيف كنا نختلف في الآراء السياسية، ولكن نتفق في حبِّ العدل.. تطرقت إلى يومِ مولدها.. أبي.. صمتُّ وأنا أتذكر خبر وفاته بعد يومين من اعتقاله..

تداعت الصور ورائحة المطار الخانقة وقفزت إلى ذهني صورتي وأنا أمسكها بيدي لتُسرع الخطى بطريقةِ سيرها الطفولية نحو الطائرة بعد أن عرفت أنني لست على قوائم الممنوعين من السفر.. حين علمت أنني سأتمكن من الهروب.. لولاها ما هربت.. لولاها ما تعبت.. ولولاها ما أحببت الحياة بعد وفاة أبي واعتقال مراد..

بـلا وعـي منـي تسـارعت كلـماتي.. وأخفيـت حقائـق يُتعبنـي تذكرُهـا.. لا أدري متـى انسـكبت دموعـي.. لم أشـعر بهـا حتـى.. للحظـة ضعـف تمنيـت فقـط يـد أبي الحانيـة تخـبرني أن كل شيء عـلى مـا يـرام.. وبسـمة مـن يعيـش في غرفـة انفراديـة تطمئننـي وتبثنـي بعـض الأمـل.. كيـف أشـعر بأننـي أنـا الضعيفـة التـي تحتـاج إليـه بينـما هـو يقـضي عقوبـة وحـده في الظـلام البـارد! أكره أن أعـترف بأننـي أحتـاج إلى أحـد.. لم أعـترف حتـى لنفـسي إلا حـين وجدتهـا قـد قامـت وجلسـت بجـواري تربـت عـلى كتفـي وتقـول لي بصـوتٍ خافـت: لا تخـافي يـا أمـي.. كل شيء تحـت السـيطرة.. أو سـيكون لاحقًـا كذلـك..

إنهم قادمون

لا تـدري إن كانـت تلـك المصادفـة في صالحهـا أم لا.. هــي بـلا شـك مصادفـةٌ هزليـة.. ولكنهـا عـلى الأقـلِ منحتهـا بعـض الأمـان اللحظـي.. أن تفقـد الطريـق أثنـاء قيادتهـا سـيارتها حتـى تصـل إلى حـيٍ شـعبيٍ فقـيرٍ جـدًّا مزدحـم وخانـق.. البنايـات متداخلـة.. لا تذكـر متـى قـررت أن تغامـر وأن تحـاول الوصـول إلى بيتهـا عـن طريـق المـرور بهـذا المـكان.. بالتأكيـد ليـس بنيـةٍ مسـبقة.. لقـد ضـاع منهـا الطريـق..

أغلقـت زجـاج نوافـذ سـيارتها وفتحـت تكييـف السـيارة محاولـةً أن تنجـو مـن شـمسِ ظهـيرة مـارس التـي لم تعـد مريحـةً للعـين.. وأخرجـت نظارتهـا الشمسـية.. مسـحت رقبتهـا بمنديـلٍ مبلـلٍ بعـد أن التصـق بهـا شـعرها القصـير.. يـومٌ مزعـجٌ والآن هـي لا تعـرف الطريـق للعـودة.. وتلـك الأيـام أصبـح أن تفقـد الطريـق وأن تبحـث عنـه وحدهـا ترفًـا لا يمكـن تحملـه..

فتحـت النافـذةَ حـين مـر بجوارهـا رجـلٌ متوسـط العمـرِ لتسـأله مـن أيـن تخـرج مـن هـذا الجحيـم.. الطقـس الحـار والرائحـة.. محاولـة أن تكـون لبقـة.. وقبـل أن تفتـح فمهـا سـمعت الصرخـات.. وطلقـات النـيران.. أغلقـت النافـذةَ مسرعـةً ودقـات قلبهـا تسـابق

يدهـا التـي أمسـكت بالمحمـولِ محاولـةً أن تعـرف عـن طريـق النظـام تحديـد الموقـع الجغـرافي أيـن هـي لتعـود فـورًا.. لمـاذا لم تفكـر منـذ قليـل في هـذا الحـل؟ لا تعـرف! ولكـن يبـدو أن المشـاجرةَ كانـت كبـيرة.. هـل هـي مظاهـرة؟ مـن أيـن يخـرج كل هـؤلاء المسـلحون.. وجوههـم عنيفـة.. ملامحهـم قاسـية.. صيحاتهـم قتاليـة عاليـة تـرج النفـوس.. تهـز الأبـدان الضعيفـة التـي تتـوارى خلـف شـجاعة زائفـة.. يأمـرون الجميـعَ بالدخـولِ إلى البيـوت.. جـاء أحدهـم وكـسر زجـاج سـيارتها الخلفـي بعنـفٍ مفاجـئ.. وضـع رأسـه داخـل السـيارة وقـال كلـمات قليلـة.. أخرجـي مـن السـيارةِ وإلا..

في أقـل مـن دقيقـةٍ كانـت تهـرول في الأزقـةِ محتضنـةً حقيبتهـا.. الأزقـة خاليـة.. حتـى الشـمس تـوارت.. مـن بعيـد تسـمع أصـوات القتـال.. وبالنسـبة لمـن يعـترض؟ لا تعلـم مـاذا يحـدث لـه.. لحظات مـن ذاكـرةٍ منسـيةٍ تخبرهـا بأنهـا قـد أتـت إلى هـذا الحـي في الماضي لتقـوم بتوزيـعِ أغطيـة في الشـتاء.. غـذاء في رمضـان.. لحـمٍ في عيـدِ الأضحـى.. ليسـت واثقـة أنـه الحـي ذاتـه.. لكـن يشـبهه كثـيرًا.. لـه الرائحـة ذاتهـا واللـون الرمـلي الـذي يصبـغ كل شيء حتـى الوجـوه.. بعـد لحظـات سـتفكر.. الآن تجـري ولا تحـاول النظـرَ للخلـف.. حتـى التقطـت أذنيهـا صوتًـا مألوفًـا!

«أبلـة نرمـين.. أبلـة نرمـين» حاولـت أن تتذكـر آخـر مـرة ناداهـا أحدهـم بهـذا اللقـب الـذي يعنـي الأخـت الكـبرى بالتركيـةِ.. كان بعـد أحـد الثـورات بشـهورٍ قليلـة.. حـين تطوعـت لتكـون معلمـةً في فصـولِ محـوِ الأميـة.. كمحاولـةٍ أخـرى.. مـن تلـك المحـاولات..

للتغيير؟ التحسين؟ النهوض بالمجتمع؟ لا تدري.. فقد فشلت الحملة بعد ذلك لضعف الإمكانيات المادية رغم الإمكانيات البشرية الجبارة.. فشل كل هتاف نادوا به.. أصبح كالنكتة..

نظرت للأعلى من حيث يأتي الصوت.. فوجدت وجهًا مألوفًا.. إنها صفاء.. تلك الفتاة التي كانت ترغب حقًّا في أن تتعلم.. تذكرها جيدًا؛ لأنها كانت مصابةً بنوعٍ من البلاهة.. كانت طيبة.. من هؤلاء الناس الذين لا يفهمون أي شيء في أي شيء.. يضحكون على أخطائهم الساذجة قبل أن يضحك الآخرون.. لا تستطيع أن تتخذ قرارًا.. والآن ها هي تناديها بصوت قوي واثق..

قبل أن تتذكر كل شيء عنها وجدتها تقف على البوابةِ الخشبيةِ العتيقةِ لبيتٍ متهالكٍ من طابقين يتداخل بناؤه في البيوت الأخرى المجاورة.. تسحبها للداخلِ بعنفٍ وتقول:

- أبلة نرمين، ادخلي بسرعة سيقتلونكِ..

- ولماذا يقتلونني.. أنا لم أفعل شيئًا!

- ولكنك منهم.. نعم أنتِ منهم.. آسفة أن أقول لكِ ذلك.. تعالي معي للداخل.. الآن أي أحد منكم يحتمي بأي أحد منا.. أهلي لن يرفضوا..

كانت تقولها بفخر.. ونرمين في حالة ذهول.. صفاء تتحدث عن أمر جديد وهي لا تدركه.. لو كان هذا مدًّا ثوريًّا جديدًا فهي مستعدة للمشاركةِ فيه وفورًا.. كما شاركت من قبل في

كل شيء يدعـو للتغيـير.. لم تكـن مـن النـوعِ الجبـان.. في المـاضي.. ولكـن هنـاك شـيئًا جديـدًا.. شيء يبـدو أنـه يدعـو للقلـق.. فتحـت المحمـول لم تجـد أي شـبكة.. مـات.. لا إنترنـت ولا مكالمـات.. تكـره لحظـات انفصالهـا عـن العـالم الخارجـي الـذي أصبحـت تدمـن التواصـل معـه عبر الهاتـف الـذكي.. حـدث ذلـك مـن قبـل.. في يـومٍ مـا قطعـوا كل وسـائل التواصـل.. ويومهـا لم تخـف؛ لأنـه كان يعنـي شـيئًا مـن النـصر.. يعنـي أنهـم مؤثـرون إلى تلـك الدرجـة.. كانـوا كثيريـن.. لكنـه الآن يعنـي العزلـة..

دخلـت مـترددةً أن تسـأل مـاذا هنـاك.. أحيانًـا نرفـض أن نطـرح أسـئلة؛ لأننـا لا نرغـب في أن نسـمع إجابتهـا.. فنتركهـا معلقـةً لأطول فـترة ممكنـة.. في البيـتِ وجـدت أم صفـاء فقـط.. تشـبه صفـاء ولكـن أكـبر بخمسـةٍ وأربعـين عامًـا.. كيـف تنجـب امـرأة لأول وآخـر مـرة في هـذا السـن؟ لم تفكـر كثـيرًا.. هـذا أفضـل لهـا.. في العـادةِ تكـون تلـك الأسر بأعـدادٍ كبـيرة..

أدركـت أنـه قـد ضاعـت سـيارتها للأبـد.. ورغـم ذلـك هـي ممتنـة لكـون حقيبتهـا لاتـزال معهـا.. ولكـن السـيارة مـن الممكـن أن يقـوم مـن سرقهـا بعمـلِ جريمـة.. وهـي مسـجلةٌ باسـمها.. مشـكلةٌ جديـدةٌ مـع الشرطـة.. قالـت ذلـك بخفـوتٍ لصفـاء التـي ضحكـت ضحكتهـا البلهـاء المسـكينة.. ثـم قالـت وكأنهـا تُطمـئِن نرمـين ألا تخـشى شـيئًا.. لم يعـد هنـاك شرطـة.. لقـد انتهـى كل شيء.. وانتصرنـا..

لجملة لم يعد هناك شرطة وقعٌ غريب!

انتصرنـا؟ هـم؟ نحـن؟ مـاذا هنـاك! طلبـت منهـا أن تشـاهد التلفزيـون.. فأخبرتهـا أن جميـع أنـواع التكنولوجيـا قـد انتهـت بأوامـرِ منَّـا.. بـدأ صبرهـا ينفـذ.. مـن أنتـم؟ نحـن الشـعب.. وأنتـم العبيـد.. قالتهـا صفـاء بحيـاءٍ شـديدٍ ولكـن بـه بعـض الفرحـة.. بعدهـا بـدأت أم صفـاء في الحديـث المطـول.. بهـدوءٍ تـامٍّ وهـي تلتقـط أنفاسـها بصعوبـةٍ مـن فـرطِ الحـماس.. مـن فـرطِ سـنواتٍ بـلا لحظـة فـرح..

قالـت إن الشـعب قـد قـرر مصـيره.. لا خـوف.. لا تراجـع.. تكاتـف.. لا سـلطة بعـد اليـوم.. لا أغنيـاء بعـد تلـك اللحظـة.. الشـعب خـرج مـن جحـوره.. ذهـب لـكل أحيـاء القلـة مـن البـشر الذيـن يتمتعـون في هـذا البلـد.. احتلهـا.. انتهـى الأمـر.. وأسروا سُـكانها.. ليباعـوا كعبيـد.. لتنقلـب الآيـة.. ويسـود العـدل.. هـذا هـو الحـل الوحيـد..

كانـت نرمـين قـد كفـت عـن الاسـتماع حـين وصلـت لأذنيهـا كلمـة «أغنيـاء»! هـي لم تشـعر يومًـا بأنهـا مـن الأغنيـاء! ازدردت ريقهـا وقالـت ذلـك لصفـاء وأمهـا.. ضحـكتا بنفـسٍ صافيـة سـعيدة لا يشـوبها شـائبة.. بينـما هـي تحـترق.. قـالا لهـا مـا نوعيـة الطعـام الـذي يدخـل جوفـكِ؟ أهـو يشـبه طعامنـا؟ تركبـين سـيارة ملـككِ؟ وعـادوا للضحـك.. فتحـوا حقيبتهـا وضحكـوا حـين شـاهدوا العطـرَ ونظـارة الشـمس والهاتـف الحديـث.. بينـما هـي لا تقـدر عـلى التقـاطِ أنفاسـها.. لا تعلـم هـل تبـكي أم تنتظـر خـبرًا مختلفًـا قـد يقلـب الموازيـن.. لأول مـرة تـدرك كيـف ينظـر إليهـا مـن يعتـبرون أنفسـهم مختلفـين.. مدللـة.. إذن حقـيرة.. جميلـة منمقـة.. إذن

تستحق الموت.. نظيفة؟ يا لجرأتها.. متعلمة؟ هذا كثيرٌ لقد طفح الكيل.. التعليم يعني الوقاحة.. المعرفة تعني التكبر.. تعني الطبقية..

في المساء عادت بعض وسائل الاتصال.. سقطت مدينتها كبغداد في يدِ المغول.. المغول لا يشبهون العرب.. يسهل التفريق بينهم في الملامح.. ولكن كيف تُجزم صفاء وأمها أنها تختلف عنهم! قالت لها صفاء باسمةً حين حاولت استعارة ملابس تشبه ملابس الشعب لعلها تتخفى، أنها مهما ارتدت من ملابس رثة سيعرفون.. بشرتها.. أظافرها.. ملمس يدها.. والأدهى هو لغتها.. لغتي؟ نحن نتحدث اللغة نفسها! ابتسمت ولم ترد.. وكأنها تحاور بلهاءً تعيش في الوهم..

حاولت أن تخرج من الذاتية.. وأن تعرف حقيقة الوضع.. علمت أنه قد أصبح لكلِّ منطقةٍ صغيرةٍ كبيرٌ يحكمها بالسلاح.. مع بعض التنسيق مع كبار المناطق الأخرى.. بلا كبير فوقهم جميعهم.. فقد اتفقوا ألا يُقَلِّدوا أحدًا أمورهم.. ولا تواصل مع أي دولة أجنبية.. عصابات مسلحة قدمت من العشوائيات.. تدربت في الحواري.. من يعترض يُقتل في ساعتها.. فلا وقت لمفاوضاتٍ وكلامٍ مُزينٍ مُزخرفٍ بمصلحاتٍ بلا معنى اعتاد عليه الأثرياء.. فلسفة الأمور.. لا أمور ولا فلسفة ولا علم ولا إعلام.. أمامك سلاح.. إن تطعه تعش.. إن تتمرد.. فلتذهب فورًا بلا ضجيج..

عادت لتفكر في حياتها.. مرت أيامٌ وهي لا تزال في بيتِ صفاء.. عرفت أن الشعبَ لم يصل إلى الأثرياء الحقيقيين.. هؤلاء

الذيـن يعيشـون في قصـورٍ منفصلـةٍ عـن مدينتهـا.. يطلبـون طعامًـا مـن مطاعـمِ باريسـيةٍ ويصـل إليهـم بالطائـرةِ خـلال سـاعات قليلة.. لا يتعلمـون في بلادهـا.. يأكلـون مـن مـزارعِ خاصـةٍ غـير مسرطنـة.. ويشربـون ميـاه مسـتوردة.. هـؤلاء نجـوا.. لم يتحولـوا لعبيـد.. سـافروا.. انتظـرت أن يحررهـم أي أحـد ممـن كانـت تثـق بهـم عـلى السـاحة الثوريـة.. علمـت أنهـم قـد تحولـوا أيضًـا.. منهـم مـن سـافر.. ومنهـم مـن قـد تـم ختمـه.. عرضـه.. ثـم بيعـه..

يئسـت، لحظـات.. تمنـت أن تهـرب للحظـات.. وأوقـاتٌ أخـرى تـاه منهـا الزمـن.. تقـضي يومهـا في غرفـةِ صفـاء.. علمـت أنهـم سـيذهبون لأخـذ نصيبهـم مـن غنيمـةِ الحـي الأقـربِ لهـم الـذي تـم احتلالـه.. كانـوا يحلمـون ببيـتٍ جديـدٍ؛ لأن هـذا آيـل للسـقوط.. ليسـوا الأفقـر لـذا سـيتأخر دورهـم.. بيتهـم مـن الداخـلِ بـه لوحـات.. تحمـل أحجـارًا زرقـاء عملاقـة لتمنـع الحسـد.. كانـوا يشـعرون أنهـم يملكـون مـا يمكـن حَسَـدهم عليـه.. فهنـاك مـن ينـام في مجـاري الـصرف الصحـي.. وآخـرون ينامـون تحـت الكبـاري العملاقـة القاسـية.. يشـعرون أنهـم ليسـوا الأكـثر بؤسًـا.. كـما كانـت تشـعر نرمـين أنهـا مطلقًـا لم تكـن مـن طبقـة الأغنيـاء! يقولـون كل ذلـك وهـم يختلسـون النظـر إليهـا.. مذنبـة هـي.. ولكنهـا طيبـة.. هكـذا تقـول أعينهـم.. مسـكينة هـي.. ولكـن تسـتحق..

ثـم فـترةٌ مـن الكآبـةِ لا بـأس بهـا.. لقـد حاربـت في الماضي بقـدرِ الإمـكانِ مـن أجـل العدالـة الاجتماعيـة.. سـاعدت بـكل مـا تملـك مـن طاقـة.. آمنـت بالعـدلِ وبالحريـة.. لكـن مـا يحـدث ليـس هـو المسـار الصحيـح.. سـتنتهي أموالهـم وغنائمهـم التـي سـلبوها مـن

العبيـد.. سـيقتلون بعضهـم مـن أجلهـا.. وتأتيهـا لحظـات عجيبـة مــن الشــماتة.. في كل مــن تشــاجروا بعــدد الموجـات الثوريــة.. كلهــم مــن طبقــةِ العبيــد الآن.. ضحــكات ســاخرة هســتيرية.. يعقبهـا صمـتٌ قاتـلٌ وتوجـس.. فـالآن هـي حبيسـة بيـت أنـاس لا تعرفهـم.. لمتـى؟

هــل ســتأتي اللحظــة التــي تخــرج فيهــا مــن البيــت فتتحــول؟ علمـت أن كثـيرات مـن صديقاتهـا يعشـن في بيـوتِ مـن كانـوا يومًـا سـائقين.. كخـدم.. أو كحـراس عـمارات.. وأخريـات تـم تسـليمهم.. سـمعت أن زميلهـم كريـم قـد مـات.. قديمًـا كان يُحزنهـا أن تسـمع عــن وفــاة شــاب كان يتمتــع بصحــةٍ وافــرة.. وابتســامةٍ واســعة.. ولكـن مؤخـرًا أصبحـت تشـعر بأنهـا عـلى وشـك البـكاء فقـط حـين تــرى وجــه شــاب مــن بلادهــا.. كل مواطنيهــا هــم أبنــاء مــوت.. ولـد ليمـوت شـابًّا ويبـكي عنفوانـه النـاس الذيـن سـيبكيهم آخـرون قريبًـا.. كانـت أصبحـت كلـما تـرى ابتسـامة شـخص سـعيد تشـعر بالشـفقةِ عليـه.. لمـاذا تسـعد وموتـك قريـب؟ هـذا بلـد لـن نصـل فيـه إلى شـيخوخة.. سـنموت شـابًّا تلـو الآخـر..

كريــم مــات؟ هنيئًــا لــه إذن.. عــرف نهايتــه ومصــيره.. لم تكــن تتمنــى المــوت.. ولكــن لم تعــد تشــعر أنــه أمــرٌ جلــلٌ يســتحق كل هــذا الرثــاء.. هــي حــالات كلنــا ســنمر بهــا.. يكفينــا دراميــة.. كلــه يُنــسى..

مــر شــهر ٌكامــلٌ وهــي تعيــش في بيــتِ صفــاء.. حاولــت أن تعــود لمحــاولاتِ تعليمهــا الهجــاء.. لعلهــا تشــعر بفائــدةٍ للوجــود.. ففشــلت.. لا فائــدة.. عــادت للتقوقــعِ في غرفتهــا وقــد أصابهــا

نـوعٌ جديـدٌ مـن المشـاعر.. انتظـار اللحظـة الحاسـمة.. تسـمعهم مـن خلـفِ الجـدرانِ يهمسـون أن حاكـمَ كل منطقـة قـد أعلـن أن مـن يُسـلم أحـدًا مـن العبيـدِ فلـه مكافـأة سـخية.. تسـمعهم يسـتنكرون هـذه الفعلـة الشـنعاء.. بقـوةٍ في البدايـة.. ثـم ببعـضِ التراخـي.. لا تعلـم إن كانـت قـد أصيبـت بالبارانويـا.. وأصبحـت تشـك في مقبـضِ البـابِ حـين ينفتـح.. وفي الأغطيـةِ التـي تدفـن قلقهـا وتوجسـها تحتهـا ليـلًا..

كانـت تعلـم أن كل هـذا سـينتهي.. لكـن لا موعـد.. كل المشـاكل سـتزول.. لكـن لا خطـة.. سـتزدهر بلادهـا وتصبـح مـرةً أخـرى مـن أفضـلِ دول العـالم.. المشـكلة فقـط أنـه لا يوجـد توقيـتٌ محـددٌ.. وعمرنـا نحـن محـددٌ بعـددِ سـنواتٍ لا يمكـن أن نعيـش أكـثر منهـا.. في عمـرِ الزمـنِ خمسـمائة عـام هـي لا شيء.. ولكـن أن تولـد أنـت في منتصـف عـصر الاضمحـلال فيكـون هـذا بالنسـبة لـك هـو كل شيء..

ومـاذا لـو سـلموها.. هـل يسـتحق الأمـر كل هـذا الخـوف! ربمـا لـو واجهتـه لضـاع الخـوف منهـا.. القلـق والانتظـار هـو أسـوأ مـيراث للخـوف.. فعـلاج الهلـع هـو مواجهتـه ولا شيء إلا ذلـك..

لمـاذا يُكـرر النـاس فعـل مـا ضايقهـم بالضبـط يومًـا مـا؟.. لمـاذا حـين يرفضـون خُلقًـا معينًـا.. يكـون علاجـه عندهـم أن يحـذوا حـذوه بحذافـيره؟ يكـره أحدهـم الكـذب.. فيكـذب.. يحرقـه الظلـم.. فـما أن يُمسـك مقاليـد الأمـور حتـى يعيـث في الأرض ظُلـمًا وفسـادًا!

ماذا لو خرجت.. ربما قابلت أخيرًا أناسًا يشبهونها.. كانت قد أصبحت تكره لحظات جُبنها التي زادت.. فلم تكن أبدًا كذلك من قبل.. لم تكن تخشى الموت حين كانت تتخيل أنه سيؤدي إلى تحرر بلادها.. ولكنها الآن تشعر أنها ستموت بلا طائل.. ورغم كل ذلك تتنصت عليهم من خلفِ الأبواب.. ثم تتوارى ملتصقة بالحائط.. وهي تدرك أنهم لا محالة، لن يتركوها طويلًا.. هذا أقوى منهم.. تسمعهم قادمين.. فتقول إنها النهاية.. أو البداية.. لا تعلم.. خائفة.. مستسلمة.. تنتظر.

وعي

فقدتْ التركيز، ولم تعد قادرة على تمييز سبب ألم عضلات ذراعها؛ أهو ثُقل تلك المشتريات أم أنها لم تعد تقدر على حمل أي شيء؟ أي شيء فيه ضغط على إرادتها حتى لو كان رمزيًّا..

سارت وسطهم، تجمعات من البشر لكلٍّ غرض، تشابهوا.. يدفعون أموالًا مقابل الحصول على أشياء، هنا كل شيء غالي الثمن، ملابس بعلاماتٍ تجارية فاخرة، أحذية، عطور، ومجوهرات. بين المحلات متاجر لبيع المأكولات، أيضًا مرتفعة الأسعار.

نظرت في الوجوه، حقًّا تشبههم.. آثار استياءَها ذلك، كانت منذ لحظات قد شاهدت صورة تشبهها، هناك.. في مكان آخر من الأرض، فتاة في مثل عمرها تمسك بملابسها وتكاد أن تمزقها وهي تصرخ.. أمامها جثث.. فهمت من الصورة أنهم أبناؤها، كان هناك مقطع فيديو أيضًا، لم تضغط لتشاهده، اكتفت بالصورة، كانت تشبهها بشكلٍ غريب.

لا تعلم هل لو كانوا مختلفين الملامح؛ أكانوا سيتركون في روحها هذا الجرح العميق؟

تشعر أن من حولها هم المختلفون، تراهم يأكلون.. يضحكون.. وتحمل في داخلها شعورًا بالذنب وكأنها مسئولة عما يحدث هناك فتتجمع العبرات في عينيها، تمسك رداءً أحمر يبدو ماجنًا.. وقفت في طابور غرفة القياس، سمعت من حولها يتحدثون، اثنتين تتحدثان الفرنسية.. حتى لا يفهم من حولهما.. وأخريات يتحدثن بالإنجليزية.. بلا سبب أصلًا.. ازدادت العبرات وهي تؤكد لنفسها أنها لا تريد أن تشبه هؤلاء.

في غرفة القياس بدا الثوب الأحمر فاتنًا.. غريبًا عليها، يجعلها واحدةً أخرى..

دفعت ثمنه وخرجت تبكي، ثمنه يكفي ليسد جوع أسرة في يومٍ صعب، حسبت ماذا يمكن أن يشتروا به، شكل الابتسامة التي من الممكن أن ترتسم على وجه طفلة لو اشترت لها بثمنه ثوبًا جديدًا..

دخلت متجرًا آخر، سيكون رائعًا لو جربت أحمر شفاه باللون ذاته، اقتربت بائعة متمرسة في جعل الزبونة تدفع كل ما لديها، وتسللت موسيقى يابانية خافتة..

تلفتت حولها حتى أصبحت تدور في المكان.. الناس يعيشون وكأن العالم خُلق من أجل لحظات متعتهم الصغيرة التي تصبح بغيضة حين تشاهد صور الظلم في مكان قريب بعيد.. الناس لا يهتمون ولا يدركون وليس لديهم أي رغبة سوى في إشباع رغبات غبية للحياة اليومية، نزهات زائفة وطعام ملون، حليٌّ مقرفة وغرور بلا شيء يدعو إليه..

فجأة اختل توازنها فسقطت أرضًا، شعرت أنها ترغب فقط في أن تلمس برأسها الأرض..

تجمع بعض الناس مسرعين، حاولوا إفاقتها بوضع أحد العطور الفاخرة على أنفها؛ لكنه لم يُجدِ نفعًا.. كانت تسمعهم، لم تكن فاقدةً للوعي! أرادت أن تخبرهم بذلك ولكنها لم تستطع.. مر الوقت بطيئًا وجموع الناس تتزايد حولها.. أرادت أن تخبرهم أنها بخير، اذهبوا إلى هناك! كفوا عن حياة العبث وكأنكم تعيشون وحدكم غافلين! بغفلتكم، أنتم مذنبون وكأنكم القتلة..

جاء رجل أمن يسأل عن التجمهر، هذا ما يهمه دومًا وأبدًا.. رد الناس هناك فتاة فاقدةً للوعي.. لو كانت تستطيع أن تتحدث لقالت لهم إنكم أنتم المنعدمي الوعي..

سويعات قصار

أمسكتُ القلم لأكتب به خاطرة شعرية جاءني وحي كلماتها وأنا أطبخ منذ قليل.. كنت أعلم أن من يقاربني في العمر لم يعودوا يكتبون بالأقلام وأن شاشات الأجهزة اللوحية أو لوحة المفاتيح قد احتلت عالم الكتابة الحبرية وأزاحته على الرفِّ في السنوات القليلة الماضية.. لكني كنت لا أزال أحب الأقلام والورق..

حين وصلت للورقة تبخرت الكلمات من ذاكرتي فحزنت.. حاولت لعدة دقائق أن أتذكر حتى الموضوع لكن فشلت.. نظرت على يدي فوجدتها قد بدأت تتشقق كما يحدث كل شتاء؛ فتوجست خيفة من كون مرطب اليد الخاص بي قد انتهى وأن تنكسر أظافري.. لكن وجدت به كمية مناسبة فوضعتها على يدي البضة التي طالما اهتممت بها..

قررت فجأة أن أرتدي ثيابي وأن أنزل للشارع لأطوف مهرولة حول الحديقة الخضراء كنوع من الرياضة التي أواظب عليها لأحافظ على قوامي الرشيق.. نزلت بالفعل وأسرتني الشمس وضجيج المارة والسيارات.. لا أعلم لماذا شعرت وكأنني لم أترك المنزل منذ شهور.. لكن كنت سعيدة على كل حال.. وقفت لبرهة أتأمل الوجوه المسرعة.. مراهقون يخرجون من المدرسة

معفـرة ثيابهـم ولكـن يبـدو وكأنهـم غـير مهتمـين بذلـك الأمـر مطلقًـا.. حسـدتهم عـلى كـون كل همومهـم الآن أن يبـدون أقويـاء ظرفـاء أمـام أقرانهـم..

ثـم نظـرت للناحيـة الأخـرى فوجـدت بائـع الخـضر الـذي يجلبهـا يوميًّـا في الصبـاح ليضعهـا عـلى عربـة خشـبية أمـام الحديقـة.. كان يغنـي بأسـماء مـا يبيـع مـن خـضر وفواكـه.. لـو يكـن صوتـه جميـلًا بشـكل خـاص ولكـن كان شـجيًّا، وأجمـل مـا فيـه هـو اسـتمتاعه بـه..

سرت قليـلًا حـول الحديقـة التـي كانـت رائحـة السـماد الصناعـي بهـا جميلـة.. تشـبه رائحـة البطيـخ.. غريـب أن يكـون السـماد الصناعـي أذكى رائحـة مـن السـماد الطبيعـي.. رغـم كونـه أقـل فائـدة للمزروعـات.. بعـد نصـف سـاعة قـررت أن أعـود لأكمـل الطهـي حتـى يجـده الأولاد معـدًّا كالمعتـاد حـين يعـودون مـن المـدارس..

بمجـرد رجوعـي للمنـزل وجـدت ابنـي وابنتـي يقفـون وهـم في غايـة القلـق.. أنَّبنـي ابنـي كثـيرًا عـلى الخـروج وحـدي دون أن أخـبر أحـدًا.. وكانـت ابنتـي تبـكي فرحًـا لأننـي تمكنـت مـن العـودة.. وكان حـارس البنايـة يشـكر ربـه أنـه رغـم مـرور سـاعات عـدتُ سـليمة معافـاة..

أسـندوني حتـى جلسـت شـاردة الذهـن قليـلًا.. ثـم نظـرت إلى يـدي فوجدتهـا تمتلـئ بتجاعيـد الزمـن.. وبقـع بنيـة كنـت أراهـا عـلى يـد جـدتي.. وكانـت ركبتـي تـئن ألمـًا.. قلـت لهـم إنهـا لم تكـن

سـوى نصـف سـاعة! لم يصدقنـي أحـد.. أمرتهـم أن يعـودوا لبيوتهـم وأزواجهـم وأبنائهـم ولكـن رفضـوا ليكـرروا الحـوار الـذي يعرفـون أننـي أكرهـه بأنـه لابـد أن أعيـش مـع أحدهـم.. كل ذلـك مـن أجـل نصـف سـاعة اختلسـتها مـن عمـر الزمـان...

رحلة مفاجئة

مـرة أخـرى تقابلنـا.. ولكـن لم أكـن قـد خططـت لذلـك اللقـاء.. اسـتيقظت في الصبـاح وقـررت فجـأة أن آخـذ السـيارة دون أن أخـبر أحـدًا وأن أذهـب فقـط للجلـوس أمـام المدرسـة.. وحـين وصلـت درت حولهـا قليـلًا ثـم ترجلـت أتأمـل المبنـى الشـاهق العتيـق؛ ففوجئـت بهـم يضحكـون ويتبادلـون السـخريات والنـكات.. تمامًـا كالمـاضي!

كانـت نسـمات الصبـاح البـاردة تـكاد تصيـب وجهـي بالتجمـد.. فرحـت ابتسـم ابتسـامات مصطنعـة لأحـرك عضـلات فـكي.. ونظـرت في السـاعة فـإذا بهـا السـابعة والنصـف.. وقـت طالمـا كرهـت أن أسـتيقظ فيـه.. ولا أحبـه أبـدًا إلا في حالتـين.. أن أكـون قـد وصلـت إليـه مسـتيقظة مـن الأمـس.. أو أن يكـون يـوم رحلـة مدرسـية.

في يـوم الرحلـة تكـون الحقيبـة مُعـدة منـذ سـاعات الليـل الأولى.. والملابـس جاهـزة بـكل تفاصيلهـا.. الإكسسـوار وحُـليُّ الشـعر.. حتى أننـي كنـت أسـتيقظ قبـل الموعـد الـذي سـتأتي أمـي لتوقظنـي فيـه.. كنـت أظـل في الفـراش أتقلـب.. تتسـلل إلى أنفـي رائحـة الطعـام الـذي تعـده أمـي لي لآخـذه معـي لـكي أتناولـه عـلى مـدار اليـوم.. كانـت تعـد لي شـاورما.. كل مـرة شـاورما.. سـنوات طـوال لم

آخذ معي في الرحلات سواها.. ولم أكن أملُّ منها مطلقًا.. كانت شطائر أصدقائي تتنوع بين الكفتة وشرائح الدجاج واللحوم الباردة.. كانت شطائرهم تتشابه.. ولا يأتي بالشاورما غيري، وكنا نتبادل كل شيء وأي شيء ونجرب كل شيء.

رأيتهم جميعًا يقفون على باب المدرسة الحديدي الأخضر.. اقتربت منهم فرحبوا بي ترحيبًا عاديًّا، وكأننا كنا هنا بالأمس معًا.. حتى أنا لم ألحظ أي فرق في ملامحهم.. الضحكات نفسها.. وتلك مازالت تغار من هذه.. وسارة كما هي متأنقة بحواجب تم تنحيفها بعناية فائقة رغم كونها بعد مراهقة صغيرة.. عبير بملابس رياضية ونظارة شمس مضحكة وضفيرة.. نهى تتلفت حولها حتى لا يراها والدها؛ فقد كانت تقف معنا وهو قد أمرها أن تنتظر البدء في الانطلاق للرحلة في الحافلة لا في الطريق.. أمر سخيف جدًّا أن يكون والدك مُعلم في المدرسة ذاتها التي تقضي فيها حياتك الأولى.. منار تسخر من الجميع والجميع يسخر منها بلا تحفظ.. هديل الملولة تبتسم بتحفظ على الدعابات المكررة وأنا أعلم أنها لم تكن تأتي للرحلات إلا تحت إلحاح مني رغم كرهها لتفاهات مجموعة البنات الصغيرات اللواتي لا يتحدثن إلا عن موضة السترة الجينز إن كانت قد انتهت أم لا.. وعن ذلك الفتى إن كان معنى حديثه أنه عاشق ولهان أم لا.

وقفت بينهم حائرةً.. لم أعد عدتي للرحلة المفاجأة تلك! ولو استيقظ أهلي ولم يجدوني ولم يجدوا السيارة التي في الحقيقة ليست ملكي لن يكون يومًا سارًّا.. فقد كانت خطتي تعتمد

على العودة خلال ساعة والنوم في براءة بعدها.. ولكن رؤيتي للجميع هنا أربكتني.. رحلة أتمناها لا أنكر.. ولكن كيف سأذهب حتى دون حقيبة شطائر الشاورما!

فكرت قليلًا.. الطعام مقدور عليه، أنا كبيرة الآن وأستطيع أن آكل أي شيء.. لست ممنوعة من تناول الطعام من المطاعم المشبوهة التي تبيع الأكلات الشعبية التي كانت في طفولتي حتمًا ستودي بحياتي كما كانت تقول لي أمي.. والجميع يتعامل معي على أنني قد أتيت مثلهم لأذهب للرحلة..

سحبتُ عبير من ذراعها وأبعدتها عن مجموعة الضاحكات اللواتي لا يسمعن إلا الصياح وعاتبتها على عدم إخباري بأمر الرحلة.. قالت لي بدهشة غامرة إنني قد تحدثت معها أمس مؤكدة حضوري.. ثم نادت الجميع فأكدوا الأمر..

فهمت سارة أنني أتملص من الذهاب.. كعادتي في التملص من النزهات التي لم تكن على ذوقي، أو حين أصاب بحب العزلة فأضع العراقيل.. غضب الجميع مني.. ضحكت بشدة.. حقًّا أنا غير مستعدة للرحلة التي ستذهبن إليها يا مجموعة المراهقات السعيدات! نعم أتمنى أن أذهب معكن حقيقةً.. لكنني صدقًا قد اختلفت..

لم يسمعنني كما توقعت.. فطلبت منهن أن نلتقط صورة جماعية قبل بدء الرحلة.. كانت صورة رائعة.. وجدت وجهي فيها يتأرجح بين الصبا والشباب ولا يبدو عليه عمر، تسللت بعدها لسيارتي وتركت كل شيء خلفي.. فتحت نوافذ السيارة

كلهـا لأزداد تجمـدًا.. ضحكـت بصـوت عـالٍ غـير مصدقـة أنهـن مازالـن هنـاك.. وأننـي رغـم ذلـك أتركهـم لأعـود طواعيـةً لمـا صرت عليـه..

دفاتر

عرفت أنها لم تكن تحب هذا العمل كثيراً؛ ولكنني عرفت لاحقًا، فيما بعد. ولكن كانت تفرح بانتهائه بسعادة طفل انتهى من الاختبارات الشفهية في المرحلة الابتدائية، أشارت إليَّ في ذلك العام آن آتي وأتصفح معها مجلة بوردة الألمانية للتطريز.. وكان بجوارها قاموس ألماني عربي صغير كان لأبي أيام الثانوية العامة في الستينيات، قالت لي بسعادة عرفت فيما بعد أنها مصطنعة:

- «هيا اختاري».

وفورًا وضعت وجهي كله في الصفحات وجل اهتمامي لأختار السترة الصوف التي سوف تظل ترافقني حتى نهاية الشتاء القادم، أشرت نحو سترة بيضاء اللون تزينها صورة فتاة شقراء، قالت لي أمي إنه لن يكون جميلًا وسيتسخ سريعًا.. اقتنعت فورًا.. أخبرتها أنني اخترت البنفسجي الذي ترتديه الفتاة الأقرب للبدانة ذات الوجنة الحمراء، قالت لي أمي إنها تختلف عني في الجسم وسيكون عليَّ مختلفًا ولن يعجبني، بدأ صبري في النفاذ حتى وقعت عيني على السماوي اللون ذي رسمة الفيل.. قلت بفرح:

- «هذا هو».

نظـرت أمـي لـه ولي. لم تتحـدث كثـيرًا.. وحـين قالـت «لا» بـدأت في البـكاء فـورًا وفي تلـك اللحظـة دخـل أبي وقـال:

- «ولمــاذا تخبرينهــا إن كنــتِ لــن تغــزلي لهــا مــا ســيعجبها في النهايــة»؟

شـعرت أن في ذلـك نوعًـا ممتـازًا مـن الضغـط فـزدت مـن جرعـة البـكاء.. ردت أمـي بهـدوء حـين أتذكـره أشـعر بأنـه كان منكـسرًا:

- «أريـد أن يكـون لهـا إرادة وأن تعلـم أنـه رغـم رغباتهـا الحـرة فلـن تكـون دومًـا مجابـة».

قال لي أبي حانيًا:

- «اذهبي الآن للنوم وغدًا نتحدث في هذا الأمر».

في طريقـي لغرفتـي كنـت أفكـر في مظهـري بضفيرتـين طويلتـين في شـتاء أرتـدي فيـه سـترة بصـورة فيـل..

كان كل شيء قليـلًا وبـالأدوار.. الطعـام والملابـس والنزهـات، لم يخبروننـا بـأي شيء حـول لمـاذا علينـا دومًـا انتظـار دورنـا والرضـا بـه ولم نكـن نشـترك معهـما مطلقًـا في عمليـة التوزيـع..

سألتني زميلتي مي مرة:

- «هل أنتِ غنية أم فقيرة؟»

كانــت تقــف بجوارهــا هديــل ومعهــا ورقــة وقلــم، تكتــب

الإجابـات.. بـدا السـؤال أصعـب مـن أسـئلة اللغـة الإنجليزيـة التـي كنـت أتعـثر فيهـا كتعـثر رضيـع يصعـد الـدرج.. تلعثمـت كعـادتي في تلـك الأيـام، كنـت أحـاول أن أرد بإجابـة تشـعرهم بأننـي متميـزة دون اللجـوء للكـذب.. كنـت قـد تشربـت بشـعور أن الكـذب هـو أمـر داعـر! قلـت:

- «نحن متوسطون».

قالت مي بلهجة آمرة:

- «لا يوجـد شيء اسـمه متوسـطون، أنتـم أغنيـاء أو فقـراء، حـددي».

ازدادت حيرتي فهربت بسؤال:

- «ما معنى الاثنين؟»

قالت وكأنها كانت تنتظر السؤال:

- «الأغنياء يأكلون لحمًا كل يوم».

وأضافت هديل بحماس:

- «ويشترون ملابس أكثر من مرة طوال العام».

قلت بتوجس:

- «كم مرة مثلًا؟»

محتفظةً بحماسها استطردت:

- «خمس مرات مثلًا».

تسارعت دقات قلبي.. ظننت أنها صدمة لأنني لأول مرة أعرف أننا فقراء! نحن لا نشتري الملابس نهائيًّا.. وأمي تغزل لكل فرد فينا مرتين سنويًّا.. بدت على وجهي علامات البله فجأة.. وتركتني الفتاتان المرموقتان في مجتمع بنات المدرسة متأففتين من فرط الملل.. ففرحت بالنجاة من الاعتراف الخطير.

عدت للبيت في همي، استقبلتني أمي بتوبيخ شديد، وذلك لأنني كنت من فرط الهم قد نسيت خلع حذائي قبل الدخول إلى المنزل ولوثت السجاد.. بدت غاضبةً جدًّا فهرولت نحو غرفتي خائفة من أن تضربني.. هرولت محدثةً المزيد من الفوضى فهرولت خلفي وهي تمسك بالسلاح.. حذائها المنزلي هبط على كتفي محدثًا دويًّا أيقظ أختي التي كانت تصل إلى البيت قبل وصولي بساعة.. بكيت حتى جاء موعد الغذاء بوصول أبي وأخي الأكبر، نسيت كل شيء عن مي وهديل وأنا أتناول المسقعة باللحم المفروم، نسيت أن ألاحظ أن ذلك يوم مهم؛ لأن اللحم المفروم لا يأتي إلا مرة أسبوعيًّا، أما الدجاج واللحم المحمر فهو مرة كل ثلاث أسابيع بالتناوب.

بعد الغذاء افترشنا الأرض لنحل الفروض المنزلية ورغم انشغالي لاحظت أن أبي قد نظر لأمي نظرة ذات معنى فيها تساؤل، قالت له:

- «ليس الآن.. بل غدًا.. اليوم هي معاقبة».

بدا أبي كالطفل الحزين.. فهمت أن الحوار يدور حولي.. لم

أفهـم مـا هـو الـذي تأجـل لأننـي معاقبـة، كل مـا دار في مخيلتـي هـو السـعادة؛ لأن أبي لم يقـرر أن يعاقبنـي بظهـر كفـه عـلى رأسي لأننـي أغضبـت أمـي في غيابـه.

في الصباح اسـتيقظت عـلى وجهيهـما فقمـت مفزوعـة، في العـادة لاسـتيقظ تناديـني أمـي مـن بعيـد عدة مـرات ويكـون أبي في الشرفة يقـرأ الجريـدة ويـشرب الشـاي، ظننـت أننـي سـأُعاقب عـلى شيء مـا نسـيت كنهـه.. ولكننـي فوجئـت بهـما يمسـكان بقطعـة قـماش هـي جاكـت سـماوي اللـون يناسـبني تمامًـا يزينـه رسـم مشـغول باليـد لفيـل يضحـك لي.

***

كانـت في معظـم الأوقـات تكـرر الحكايـات.. مـع ذكـر تفاصيـل جديـدة أو نسـيان تفاصيـل أخـرى، كنـت أسـتمع لهـا كل مـرة دون أن أذكـر نهائيًّـا أننـي قـد سـمعت القصـة مـن قبـل.. بـل ومـرارًا وتكـرارًا.. وذلـك لأننـي كنـت قـد رأيتهـا تقـص عـلى أخـي موقفًـا مـا قـال لهـا إنـه سـمعه مـن قبـل، فرأيـت عـلى وجههـا نظـرة إحبـاط قـررت بعدهـا ألا أتسـبب فيهـا مطلقًـا.. لـذا كانـت تعتـبرني صديقتهـا الوحيـدة.

سألتها مرة:

- «مامـا لمـاذا ليـس لـك صديقـات مـن الجامعـة أو المدرسـة أو جاراتـك حـين كنتـي في بيـت جـدي؟»

بـدأت في تذكرهـن.. كنـت أعرفهـن كلهـن فقـط مـن الحكايـات..

ولكـن لم أر أيًّـا منهـن مطلقًـا.. كان ذلـك يشـعرني بـالأسى.. سـأنسى نـوران وهنـد بمجـرد أن أتـرك المدرسـة! هـذا مـا تصورتـه وقتهـا، تقـول أمـي:

- «الـزواج يشـغل الفتـاة حتـى عـن أهلهـا.. لا وقـت للصديقـات، ولكنهـا كانـت أحـلى أيـام.»

في الأعيـاد تهاتفهـم ويصبـح صـوت ضحكتهـا مختلفًـا عـن صوتهـا بقيـة العـام، فيـه مـرح مـن النـادر جـدًّا أن نراهـا فيـه، رغـم أنهـا تضحـك عـلى الـدوام ولكـن ضحـكات هادئـة، لم أكـن أشـعر بالغـيرة بـل كنـت أتمنـى أن تزورنـا هـؤلاء الزميـلات لعلهـن يجعلنهـا تضحـك بتلـك الصـورة المبهجـة فـترة أطـول.. وبعـد تلـك المحادثـات كانـت تحـكي لي أخبارهـن ثـم تعـود لتذكـر حكايـات المـاضي المعروفـة.. وأعـود لأسـمع بالشـغف ذاتـه.

بينـما كانـت أمـي تقـول إنهـا كـبرت كنـت أسـمع أبي يقـول عـن نفسـه «يـا ولـد يـا فـؤاد».. لم ألحـظ ذلـك إلا مؤخـرًا وأنـا أنظـر في صـورة قديمـة بـدا فيهـا ينظـر للفضـاء البعيـد متأنقًـا بارتـداء السـترة السـوداء التـي كان يرتديهـا فقـط في المناسـبات بينـما كانـت هـي تحمـل حقائـب ممتلئـة بالشـطائر وبحفاضـات أختـي الصغـيرة ويبـدو شـعرها مبعـثرًا رغـم محاولـة جعلـه يشـبه تسريحـة ليـلى علـوي الأخـيرة، قريبًـا جـدًّا فهمـت أنهـما كانـا يخفيـان عننـا الكثـير مـن الاختـلاف بينهـما.

مرة أخرى أتت مي لمضايقتي بشكل غير معلن، قالت لي:

- «ماذا يعمل والدك؟»

لا أدري متى أصبت بعدوى كره الفضوليين حتى أصبحت صيغة الأسئلة في حد ذاتها توترني وتدفعني لحالة من العداء، ويبدو أن ذلك هو ما دفعني لأن أقول لها:

- «وما شأنك أنت يا مقرفة؟!»

كان ذلك بمثابة حادث كبير في مجتمع البنات الصغير الذي كنت أنتمي إليه بكل جوارحي.. فقد بكت مي كثيرًا عند ميس عبير، وأضافت أنني قلت «يا مقرفة يا شبيهة الحيوانات»

- «لم أقل أبدًا يا شبيهة الحيوانات! لم تكن كلمة تتردد على لساني من الأصل!»

هكذا قلت وسط تنهيدات دموعي في غرفة الناظرة في الموقف الذي بدا كالتحقيق الجنائي.. حتى المعلمات تجمعن على باب الغرفة يتبادلن الحديث حول الموقف، وكنت أسمع من بعيد أطراف الكلام الذي كان يدور حول وقاحتي.

وقتها آمنت فعلًا أنني قد جننت، فقد كنت صامتة معظم الوقت مع الجميع عدا نوران وهند، كنت الطالبة المثالية بالنسبة للمعلمات، قليلة المشاكل قليلة كل شيء.. فكيف تجرأت فجأة! أصابني مس من جن؟ هكذا قالت ميس سعاد.. مدرسة التربية الدينية التي أخبرتنا أن النظر كثيرًا في مرآة الحمام يجلب الجن.. وكنت قبلها بيوم قد نظرت طويلًا أتأمل حلية شعري الجديدة في مرآة حمام المدرسة، خطرت لي تلك الفكرة فلم أخف، بل شعرت بالامتنان لهذا الجني الذي جعلني اتجرأ وأتمكن من جعل مي تبكي.

منـذ ذلـك اليـوم أصبحـت أتحـاور مـع الجنـي وأطلقـت عليـه اسـم «أمـير».. أصبح أمـير صديقـي العزيـز الـذي أقـص عليـه كل حكايـاتي ويضحـك معـي عـلى مـا لا يضحـك عليـه أحـد، أكـثر مـن مـرة بعـد ذلـك تمكنـت مـن جعـل مـي تستشـيط غضبًـا.. والفضـل كلـه لأمـير.. أمـير جنـي في مثـل عمـري ولكنـه ابـن ملـك الجـان.. لـذا هـو أكـثر شـجاعة ويسـتطيع أن يقـول مـا يحلـو لـه وأن يعـبر عـمَّا يرغـب فيـه.. أمـير ليـس وسـيمًا.. ورغـم ذلـك الـكل يحبـه – فقـط – لأنـه ابـن الملـك، أمـير هـو واسـطتي إن حـدث لي مكـروه في المدرسـة وهـو مـن ينقـذني مـن براثـن المعلـمات اللـواتي ينحـزن دومًـا لمـي وهديـل ضـدي.

في اليـوم الـذي حـضرت فيـه أمـي للمدرسـة بنـاءً عـلى اسـتدعاء ولي الأمـر الـذي وُجـه إليهـا بسـببي بـدت قويـة بعكـس مـا توقعـت، خفـت أن تنـصرهـم عـليَّ وأن توبخنـي أمامهـم، قلـت لأمـير أن يقنعهـا بأننـي لم أخطـئ، ولكنهـا دون أن يخبرهـا أمـير أي شيء قالـت بثبـات:

- «ربيـت ابنتـي أحسـن تربيـة، ابنتـي مسـتحيل أن تشـتم ولا تعـرف الألفـاظ النابيـة».

وقفـت بجوارهـا صامتـة وأنـا أشـعر بالخجـل، فقـد كنـت قـد بـدأت في التمـرد عـلى تلـك التربيـة دون الإفصـاح.. في الطريـق للبيـت قلـت لأمـي:

- «ماما أنـا فعـلًا شـتمت مـي، لكـن ورب الكعبـة الشريفـة قلـت لهـا فقـط يـا مقرفـة يـا غبيـة.. لم أقـل الكلـمات الأخـرى».

لم تـرد أمـي.. كنـت أظـن أنهـا مـا انفكـت تفكـر في الأمـر بـلا انقطـاع.. وأنـه هـو جـل همهـا في تلـك اللحظـة.. أكانـت حزينـة؟ حـين أتذكـر التاريـخ بالتقريـب أكتشـف أنـه يقـترب مـن تاريـخ وفـاة خـالي بالسرطـان.. تتضـح لي أنـه كانـت هنـاك أمـور أكـبر مـن كلـمات إهانـة مـي.

حتـى الآن لا أجـد تفسـيرًا لمـاذا لم أقـل وظيفـة أبي لمـي بـكل بسـاطة؟ لم أكـن أشـعر بـأي نقـص فيـه.. ولم يخـبرني أي شـخص مـن قبـل أن وظيفتـه لا تدعـو للفخـر أو أنهـا قـد تدعـو للتنصـل منهـا.. فلـما شـعرت أن إجابتـي عـلى أي سـؤال لمـي سـتكون أداة ضـدي فيـما بعـد!

سألت أمي بشكل عابر فيما بعد:

- «ماما ماذا يعمل بابا؟»

نظرت لي نظرة عتاب معناها «ألا تعلمين؟» قلت مستدركةً:

- «بـلى يـا مامـا أعلـم أن بابـا يعمـل موظفًـا في الحكومـة، لكـن سـؤالي مـاذا يفعـل هنـاك حـين يصـل للمكتـب؟»

تركت أمي بكرة الصوف وقالت:

- «يمسـك دفاتـرًا وأوراقًـا وينظمهـا ويكتـب أسـماء الطـلاب وبياناتهـم».

قلت:

- «وهل تلك وظيفة كل شخص يتخرج من كلية الزراعة؟»

ضحكت أمي ففرحت لأن دعابتي قد راقت لها وقالت:

- «لا.. هناك وظائف أخرى كثيرة».

فيما بعد حفظت أن أبي موظف شئون الطلبة بكلية الآداب قسم الدراسات العليا، كان المسمى الوظيفي طويلًا؛ لذا حفظته أنا قبل أختي الصغرى، وشعرت أن في طوله هيبة.. ورغبت أن أذهب ولو لمرة لأرى مكتب أبي.. وتمنيت أن أعرف وظيفة والد مي.. أعساه يكون مديرًا كبيرًا كالذي دعاه أبي للغذاء عندنا وكان متوترًا لقدومه في ذلك اليوم الذي طبخنا فيه بط وملوخية؟ تأكدت أن وظيفة والدها هي مدير عام وإلا فلما تفضلها المعلمات! قال لي أمير إن والدها ساعٍ.. ضحكت معه وقد أعجبتني الفكرة.. الساعي يعد لأبي الشاي، ورغم ذلك هو صديقه وجاء لتعزيتنا يوم مات خالي واستقبله أبي في الصالون وكان أكثر تبسطًا وهدوءًا من يوم دعوة المدير. شعرت وقتها أننا أقرب لعائلة الساعي من عائلة المدير، وتأرجحت مخيلتي بين التوجس والضحك هل والد مي مدير أم ساعٍ؟

سألتني ميس عبير «ما هي وظيفة أحلامك» ازدردت لعابي وقمت ببطء لأجاوب، كنت دومًا ما أصاب برهاب التحدث والجميع صامتون.. وتنتابني حالة من انخفاض الصوت غير المقصودة.. ترفع ميس عبير صوتها التأنيبي وقائلة:

- «ارفعي صوتك لا تمثلي الرقة!»

أحاول رفع صوتي والتشجع وأنا أقول:

- «أريـد أن أكـون موظفـة شـئون الطلبـة في كليـة الآداب قسـم الدراسـات العليـا».

يضحـك الجميـع بـلا انقطـاع وأضحـك معهـم وأنـا سـعيدة أننـي لم أتلعثـم أثنـاء سردي لمسـمى وظيفـة أحلامـي.

***

قالت مي:

- «هل كنتي تكرهينني إلى هذا الحد؟»

ضحكت وقلت:

- «لا أعرف! كنتي سخيفة جدًّا.»

شردت ولم تـرد، لم أعتقـد أن تلـك الكلـمات سـتضايقها، صرنـا كبـارًا.. كان ذلـك حـين أصبحنـا في الشـهادة الإعداديـة ونسـتطيع أن نفلسـف الأمـور، وكنـت قـد علمـت أن والدهـا الـذي لا تـراه كثـيرًا موظفًـا عاديًّـا لا يختلـف كثـيرًا عـن أبي، ولم أعلـم حتـى الآن سر سـؤالها لمجموعـة بنـات في مدرسـة حكوميـة عـن كونهـم أغنيـاء أم فقـراء!

عـدت للبيـت وخلعـت حـذائي قبـل أن أدخـل ليـس فقـط لأن أمـي سـتوبخني، بـل لأننـي أنـا التـي تنظـف كل أسـبوع ولـو تلـوث البيـت بآثـار الطـين اليومـي الـذي يجلبـه حـذائي رغـمًا عنـي فأنـا مـن سـتتعب وهـي تحكـه بقـوة ليـترك أرضنـا نظيفـة. قابلـت أمـي عـلى بـاب المطبـخ فابتسـمت وهـي تسـألني عـن يومـي، قلـت لهـا بحـماس:

- «طلبوا منا أن نكتب موضوعًا عن السعادة. ماما هل أنتِ سعيدة؟»

ردت بلا أي نوع من التفكير:

- «سأكون سعيدة لو غسلتي يدكِ وحضرتي معي الطعام وذاكرتي وحصلتي على علامات مرتفعة».

أصبت بحالة إحباط! وفكرت أن أمي أصبحت سيدة بسيطة العقل مقارنة بي.. لا تفكر كثيرًا وكل ما يهمها هو المطبخ والنظافة صباحًا، وغزل ملابسنا ومتابعة دراستنا مساءً، أمي امرأة خاملة العقل إذن.

على منضدة الطعام التي تتحول إلى مكتب ليلًا توقف قلمي عن الكتابة بعد أن كتبت أول جملة «السعادة لا يمكن كتابتها في الدفاتر»..

سألت أبي حذرةً:

- «بابا.. هل أنت سعيد؟»

بدا على وجه أمي نظرة ضاحكة.. قال أبي:

- «أنا سعيد لأنني كل يوم أجدكم بخير».

ضحكت أمي وقالت:

- «أكملي الفروض المدرسية هيا».

ازدادت درجة إحباطي، أبي أيضًا لا يملك فلسفة الكتب ولا

يقـدر عـلى صياغـة الأفـكار.

في اليـوم التـالي ذهبـت للمدرسـة خائفـة مـن رد فعـل ميـس هـدى، معلمـة اللغـة العربيـة القاسـية، وكنـت قـد قـررت أن أتحداهـا وأن أخبرهـا أننـي لم أتعلـم معنـى كلمـة «السـعادة»، فلـم أقـدر أن أكتـب سـوى تلـك الجملـة، وكلـما تخيلـت أننـي أقـول لهـا ذلـك ينبـض قلبـي بعنـف. قبـل أن تبـدأ الحصـة سـألت مـي هـل كتبـت الموضـوع أم لا؟ قالـت بـلا اكـتراث إنهـا كتبـت أي شيء ليمـر اليـوم بسـلام. قلـت في نفـسي مسـكينة مـي، انفصـل والداهـا مبكـرًا وتعيـش مـع جدتهـا، هـذا هـو السـبب الـذي جعـل منهـا طفلـة قاسـية؛ لأنهـا كانـت تبحـث عـن الحنـان لـذا بالتأكيـد لا تعـرف معنـى كلمـة سـعادة، وكنـت راضيـة عـن تحليـلي الـذي ظننـت أنـه عميقًـا.

شردت أثنـاء الحصـة، لـو كانـت مـي مسـكينة فأنـا أيضًـا مثلهـا لم أجـد تعريفًـا للكلمـة التـي نقولهـا يوميًّـا رغـم أن أسرتنـا مكتملـة الأركان، وحـين جـاء دوري لأقـرأ موضوعـي قمـت وقـد تلاشـت شـجاعتي، تمنيـت أن يكـون أمـير معـي ولكنـه كان قـد رحـل بـلا رجعـة حـين شـككت مـرة في وجـوده فغضـب وخاصمنـي للأبـد، تمنيـت أن يحـاول أن يقنعنـي بأنـه حقيقـي! لا أن يرحـل عنـي ويؤكـد كل مـن قالـوا عنـه أنـه مـن صنـع خيـالي وكأنـه لا يملـك حجـة كافيـة ليبرهـن لي ولهـم. حلمـت ألا يعتـبر سـؤالي إهانـة وأن يعـود فقـط ليجيبنـي.

قلت بصوت متوسط العلو:

- «السعادة لا يمكن كتابتها في الدفاتر».

ضج الفصل كله بالضحكات، حتى ميس هدى القاسية ضحكت وقالت ببساطة غير متوقعة:

- «اجلسي يكفي عليكِ هذا».

عدت سعيدة، أفكر أن السعادة هي أن أجعل ميس عبير القاسية غير قاسية للحظات، في البيت وجدت أمي تجلس مع خالتي التي كانت توبخها، سمعتها تقول:

- «يا آمال المصاريف كثيرة جدًّا على عاتق فؤاد! وأنتِ تحملين شهادة جامعية، والأولاد كبروا، وتلك وظيفة محترمة».

وكانت ملامح أمي تشبه ملامحي في الصباح وأنا أنتظر دوري لتوبخني ميس هدى.

في المساء بدا على أمي التردد، قالت:

- «فؤاد ماذا أقول لسميرة بخصوص الوظيفة؟»

رد أبي بغضب مكتوم:

- «قولي لها الأمر محسوم».

كلنا كنا نعرف أن أبي يرفض أن تعمل أمي، وكانت هي الوحيدة من نساء العائلة التي لا تعمل، كلهن كنَّ موظفات ذوات مسميات طويلة تشبه مسمى وظيفة أبي، وكنت أشعر أحيانًا أن أمي مفضلة عنهن لأنها مختلفة.. وأحيانًا أخرى كنت أشعر أن اختلافها هو لأنها أدنى مكانة. فرض القيود أهو حب

أم رغبة في التملك؟ والغيرة المبالغ فيها أهي حب أم قلة ثقة؟ أسئلة لم تدر بخلدي وقتها.

وقبل النوم في تلك الليلة شغلت بالي جملة واحدة «المصاريف كثيرة جدًّا على عاتق فؤاد»، وأنا كنت أسأله قبلها بيوم بكل صفاقة «بابا هل أنت سعيد؟».

***

في أول يوم لي هناك ذهب معي أبي للكلية أو بمعنى أصح أنا التي ذهبت معه كما يذهب كل صباح، راح يشير نحو كل مبنى ويشرح لي كالمرشد السياحي الفخور بآثار بلاده، لأول مرة أرى مكتب أبي ودفاتره العملاقة التي تمتلئ بأسماء طلبة الدراسات العليا في كلية الآداب وبياناتهم وشهاداتهم السابقة. كان يشعر أنه في مملكته وأن توصيته لزملائه أن يسهلوا لي الأمور وأنا أختار قسم الفلسفة شيئًا يدعو للفخر، وكنت أنا أيضًا فخورة؛ لأن الجميع هناك يحبونه.

تركته في مكتبه بالطابق العلوي ونزلت ليضعوا ملف أوراقي في دفاتر أخرى.

وبعد أن بدأت الدراسة كنت أذهب معه صباحًا ويعود كل منا وحده لاختلاف المواعيد، اخترت كلية الفلسفة ولكن كنت قد كففت عن التفلسف.

في ذلك اليوم عدت للبيت ووجدت غرفتي مقلوبة وقبل أن أصرخ هلعًا قالت لي أمي إنها تبحث عن ملابس قديمة

لتعطيها لأبناء أرملة الساعي الذي كان يعمل مع أبي.

المشكلة بالنسبة إلينا في التبرع بالملابس القديمة هو أن كلها قد غزلتها أمي! وكنت أرفض التفريط في أي منها، وأمي تبتزني عاطفيًّا في أننا لابد أن نساعد الأيتام، كان ذلك نقاشًا دوريًّا بيننا، أقول لها: أعطهم مالًا ولا تعطهم ذكرياتنا! فتقول: لو معنا المال لأعطيناهم. وافقت على مضض.. فقط لأنني بدأت أشعر أنني بهذا التصرف شخص شرير يحرم الأكثر فقرًا منا.

رحت أفحص معها الملابس الموضوعة بعناية في صندوق تحت فراشي وبينها قطع من الصابون حتى لا تتعفن، أخرجت أمي دفترًا نعرف جميعًا أنها تكتب فيه مصاريف البيت بدقة فائقة وبدأت في حصر قطع الملابس التي لم تعد تصلح حتى لأختي الصغيرة التي أصبحت في أولى ثانوي، كتبت:

«سترة عليها صورة فيل يصلح لسن ثمان سنوات».

ثم نظرت لي باسمة وقالت:

- «هل تعلمين أن غزله كان صعبًا جدًّا وأنني طلبت من جدتك مساعدتي فيه؛ لأن سيادتك ترغبين في الحصول عليه بأي ثمن».

شعرت أن الفيل الضاحك ينظر إليَّ وهو يرجوني أن يذهب لطفل آخر يبحث عن دفتر فيه اسمه.

حالات

كعـادتي اسـتيقظت قـرب العـصر فقالـوا لي إنـه مـن الصبـاح يوجـد رجـال بأسـلحة ناريـة يقفـون عـلى بوابـة بنايتنـا يتوعـدون الداخلـين فـلا يدخلـون ويهـددون الخارجـين فلـم يعـد يخـرج أحـد.. ارتديـت ملابـسي عـلى عجـل ولم يمنعنـي أحـد بـلا سـبب واضـح رغـم خطـورة الموقـف.. كأن الـكل يمثـل مسرحيـة معـدة السـيناريو والـكل يحفـظ دوره فـلا يتدخـل في دور الآخـر..

خرجـت كـما أُعـدَّ لي الخـروج وهبطـت السـلالم بتوجـس حتـى وصلـت لبـاب البنايـة.. تلـوت كلـمات دينيـة وخرجـت صـوب المدافـع الرشاشـة التـي يحملهـا هـؤلاء.. مـن هـم أصـلًا؟ لم أعـرف حتـى تلـك اللحظـة.. مـا مطالبهـم.. لم يذكـر أحدهـم شـيئًا عنهـا.. خرجـت لأننـي لم أكـن أسـتطيع أن أمكـث أكـثر مـن دقيقـة بعدمـا سـمعت أنـه ليـس مسـموحًا لي بالخـروج.. وبمجـرد رؤيتـي للشـمس ومـس قدمـي لمدخـل عمارتنـا الخارجـي انهالـت عـليَّ الرصاصـات!

كانـت ملتهبـة للغايـة.. اخترقـت واحـدة رقبتـي مـن ناحيـة اليسـار وأخـرى اخترقـت معـدتي مـن الناحيـة ذاتهـا التـي حـين حاولـت أن ألتفـت كان الرصـاص مـن نصيبهـا.. سـقطت أرضًـا عـلى الفـور وأعـدت الكلـمات الدينيـة وانتظـرت.. هـا أنـا أجـرب مـا لم

أجربـه مطلقًـا منـذ ولادتي، ومـا لم يجربـه كل مـن يقفـون حـولي.. إنـه المـوت.

كان الألم رهيبًـا.. للحظـات قليلـة حتـى راح تمامًـا.. قمـت.. وقفـت.. مذهولـة.. هـل انتهـى كل شيء بتلـك السرعـة؟ حسـنًا لم يكـن الأمـر يسـتدعي كل هـذا الرعـب.. انفـض الجمـع وهـرب المسـلحون بعـد رؤيتهـم للدمـاء.. سرت في الطريـق وأنـا أحـاول اكتشـاف الوضـع الجديـد.. مـرت أمامـي امـرأة وأطفالهـا.. كلمتهـم فلـم يجيبـوا واخترقـوني حتـى اكتشـفت أننـي غـير مرئيـة لهـم.. صعـدت عـدوًا لبنايتنـا ولشـقتنا ووجـدت الأغبيـاء هنـاك يبكوننـي بحرقـة..

قلـت لهـم أن يكفـوا عـن هـذا الهـراء.. لم يسـمعونني واسـتمروا بـلا توقـف.. أتـت فتـاة صغـيرة بنيـة الشـعر خـضراء العـين وقالـت لي بصـوت طفـولي مـرح إنهـم لـن يـروني ولـن يسـمعوني فـلا أحـاول ثانيـة.. فهمـت أنهـا قـد ماتـت أيضًـا.. ووجـدت غيرهـا كثيريـن.. كثيريـن جـدًّا.. المـكان في الحقيقـة مزدحـم بالأمـوات.. جربـت الطـيران فنجحـت.. خرجـت مـن بنايتنـا وجلسـت عـلى شـجرة أتأمـل الطريـق وأبتسـم حتـى جـاء ثلاثـة كلاب شـارع وراحـوا ينبحـون عـليَّ.. في البدايـة خفـت منهـا ثـم اكتشـفت أنـه بعـد تلـك الرصاصـات لـن تؤذينـي أنيـاب كلاب ولـو كانـت مسـعورة، نزلـت وربتـت عـلى رأس أحدهـم فهـدأ واسـتكان..

اسـتوقفت أحـد الأمـوات مـن حـولي وسـألته عـن أهـلي قـال لي اظهـري لهـم في الأحـلام.. فهـم في الأحـلام يفقـدون كثـيرًا مـن أوزانهـم ويـرون بعـض الحقائـق.. شـعرت بفيـض مـن الحريـة

المطلقـة التـي وهبـت إليَّ منـذ دقائـق معـدودة.. ولم ينغصـه إلا رصاصـة رقبتـي التـي كانـت تشـعرني وكأننـي لا أسـتطيع ازدراد لعـابي وتذكـرني بـكل لحظـة ألم وخطـأ وتهـور كل ثانيـة.. فكـرت في أننـي حـين أصعـد لأهـلي مـرة أخـرى قـد يروننـي..

قـد أكـون أنـا الأولى.. فأنـا لم أمـت بعـد، تلـك مجـرد حالـة بـين المـوت والحيـاة سـأموت بعدهـا فعليًّـا في وقـت لاحـق.. ثـم خطـرت لي فكـرة أشـعرتني بسـعادة غامـرة.. كتبـت رسـالة لهـم ووضعتهـا عـلى الطاولـة الكبـيرة التـي تتوسـط البيـت ويراهـا الـكل حـين يخرجـون مـن غرفهـم.. أخبرتهـم فيهـا أننـي سأسـافر لأسـبوع وأننـي لم أمـت..

اسـتطاعوا رؤيـة الرسـالة وقرأوهـا فارتاحـوا وضحكـوا وعـادوا لحياتهـم وأشـغالهم.. بعـد أسـبوع جـددت الرسـالة بأننـي سـأضطر للمكـوث في سـفري لشـهر آخـر.. وكنـت بعـد ذلـك أجـدد الرسـالة وأقـص عليهـم حكايـات تفيـد كـوني بخـير.. حتـى تـلاشى وجـودي مـن داخلهـم تمامًـا لكـن دون حـزن أو حـسرة.. صـار التعـود هـو سـيد الموقـف.. أمـا أنـا فقـد فطنـت إلى أن حالتـي تلـك هـي حالـة بـين المـوت والحيـاة.. سأسـتمر فيهـا حتـى أصـل للمـوت الحقيقـي.. أو ربمـا حتـى يقتلنـي أحـد الأمـوات وأنتقـل لحالـة ثالثـة.

الفهرس

منسحبون ٧
قالت لي زهرا ١٧
ما هو إلا صعلوك ٢٧
ثعبان آخر يتخفى ٣٥
وتغير لون السماء ٤٣
هم الآخرون ٥٥
فهل أعود؟ ٦١
كذبة كل يوم ٦٥
الرائعتان ٦٧
فلوت وغرباء ٧٥
صور من هناك ٨١
إنهم قادمون ٩٣
وعي ١٠٣
سويعات قصار ١٠٧
رحلة مفاجئة ١١١
دفاتر ١١٥
حالات ١٣١

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing